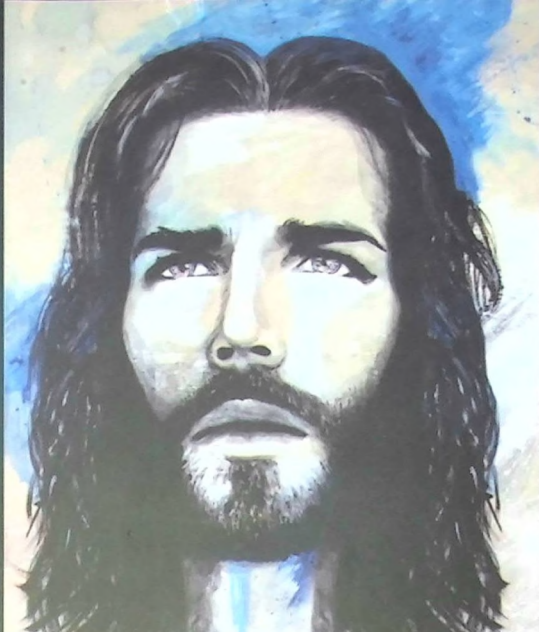




www.christianlib.com

لماذا تجسد الكلمة؟

أنسيموس اللاهوتي

ترجمة

القس إبراهيم سعيد

لماذا تجسّد الكلمة؟

تأليف

أنسيموس اللاهوتي

رئيس أساقفة كانتربري (وهو منفي في كابوا من أعمال إيطاليا سنة ١٠٩٨)
عُربّ بتصريف من النسخة اللاتينية سنة ١٧٢١ مع مقارنتها بالترجمة الإنجليزية.

نقَّحها سنة ١٩٢٨

القس إبراهيم سعيد

الأستاذ بمدرسة اللاهوت

والقس جبيري تاوضروس

المحرر المسؤول

ديفيد فيكتور



دار الثقافة

Book Name: *Cur Deus Homo?* (Latin for "Why God Became a Man?")

Author: St Anselm of Canterbury

All rights reserved.

Arabic edition © 2021 by Dar El Thaqafa Communication House.

الطبعة الأولى

الكتاب : لماذا جسد الكلمة؟

تأليف : أنسيموس اللاهوتي

صدر عن: دار الثقافة - ص. ب. ١٦٢ - ١١٨١١ - البانوراما - القاهرة

رقم الإيداع: ٢٠٢١ / ٢١٥٩٥

التزقيم الدولي: 7 - 32 - 6766 - 977 - 978

المطبعة : مطبعة سيوبرس ت: ٣٦٢٢١٤٢٥/٦

الإخراج الفني: وحدة النشر - دار الثقافة

تصميم الغلاف: أن مجدي

جميع حقوق الطبع أو إعادة النشر محفوظة لدار الثقافة

١٠ / ١٢٦٥ ط ١ / ٤ - ٢٠٢١

أنسيموس اللاهوتي.

لماذا تجسد الكلمة/ تأليف أنسيموس اللاهوتي: نقحها إبراهيم سعيد، جبيري تاؤشروس:

تحرير ديفيد فيكتور. - القاهرة: دار الثقافة، ٢٠٢١

هـ: سم.

تدمك ٧ ٢٢ ١٧٦٦ ٩٧٧ ٩٧٨

١- السيد المسيح (التجسد)

أ. سعيد، إبراهيم (منقح)

ب. تاؤشروس، جبيري (منقح مشارك)

ج. فيكتور، ديفيد (محرر)

د. العنوان ٢٧٢,٢١

تحذير:

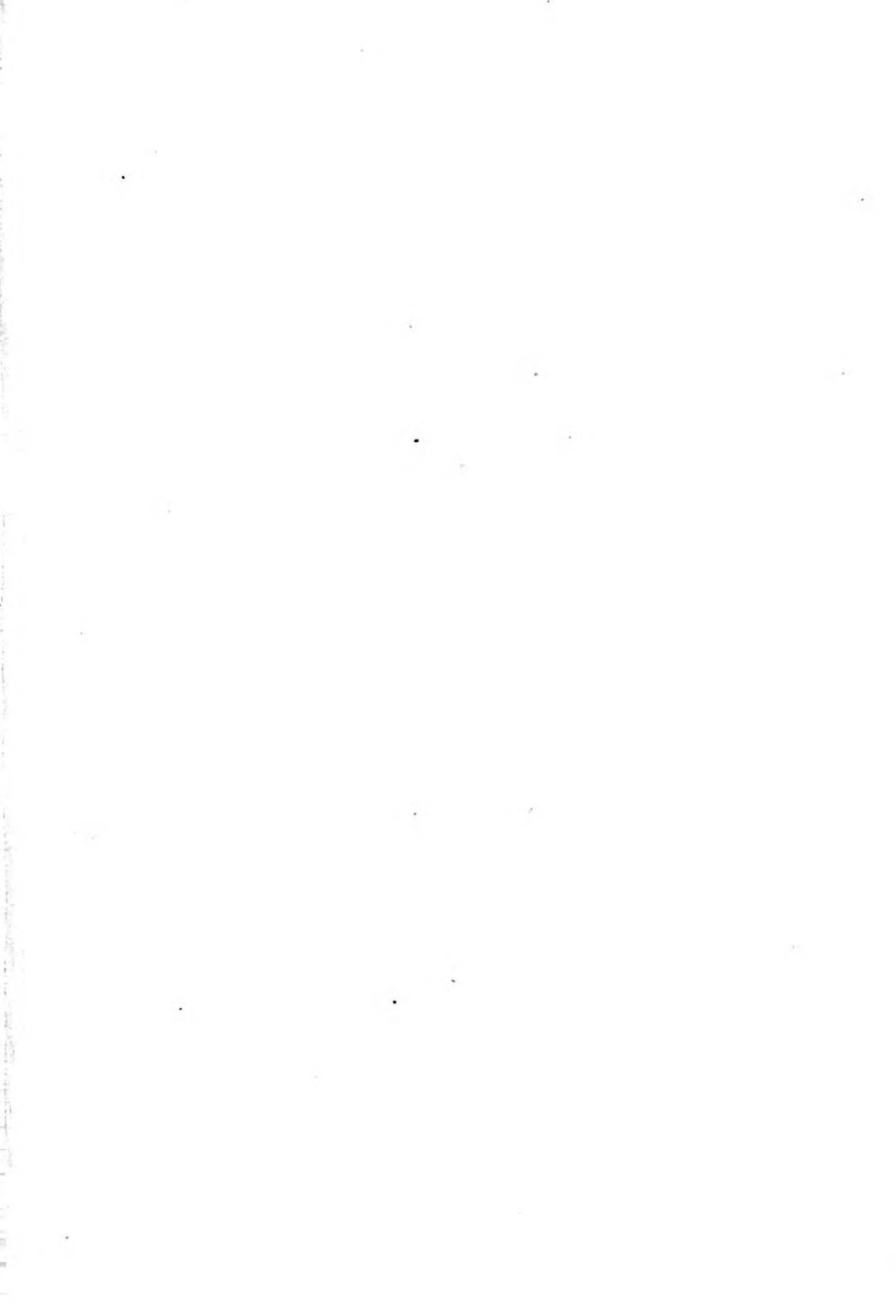
لا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كلياً أو جزئياً، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها دون الحصول على إذن خطي من الناشر، وبالشكل الذي ينص عليه قانون حماية حقوق الملكية الفكرية.

مقدمة دار الثقافة

إنه لأمرٌ ملحٌ بالنسبة للكثيرين. وفي كثير من الأحيان. أن يتعرفوا كتابيًا على البراهين التي تؤكد عقيدة معينة في إيماننا المسيحي. من أجل الوصول إلى الإيمان عن طريق العقل. وحتى يتمتعوا بالفهم والتأمل في تلك الأشياء التي يؤمنون بها؛ وأنهم. قدر الإمكان. قد يكونون دائمًا على استعداد لإقناع أي شخص يطلب منهم سببًا لذلك الأمل الموجود فينا.

ما بين يديك عزيزي القارئ كنزٌ ثمينٌ؛ فرغم إنه كُتِبَ منذ أكثر من ألف عام. إلا أنه لا يزال واحدًا من أهم ما كُتِبَ. ليجيب على واحدٍ من أصعب الأسئلة في المسيحية: "لماذا تجسد الكلمة؟"؛ وما الذي دفع الله ليصير إنسانًا؟

ويتناول الكاتب في هذا الكتاب شرح عقيدة التجسد من خلال طرح مجموعة من الأسئلة والاعتراضات والرد عليها؛ وذلك في جزأين: يتولى أولهما إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح. والجزء الثاني يتناول تأثير هذا الخلاص في البشرية.



بسم الله الواحد

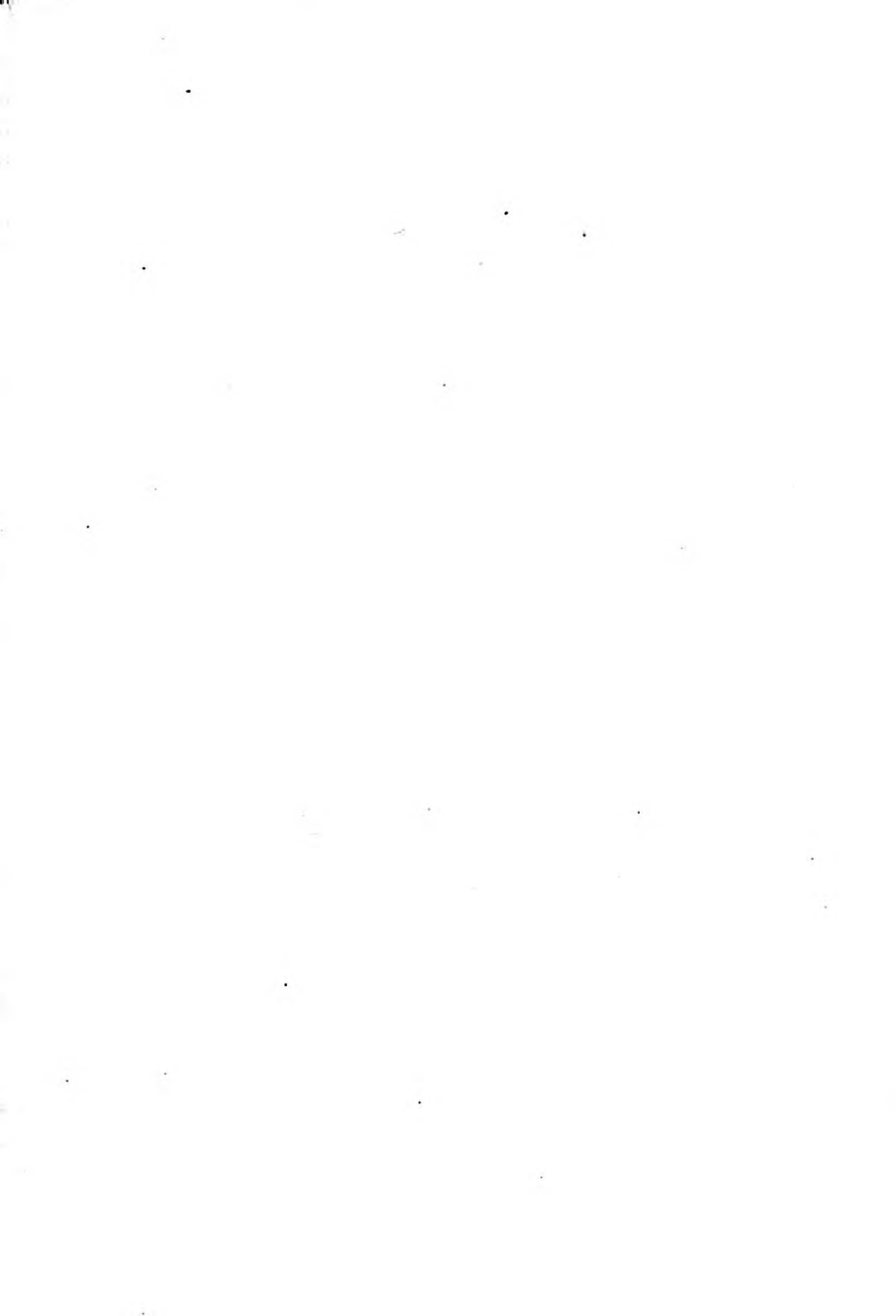
مقدمة

قال المؤلف: إن ما دعاني إلى إتمام تأليف هذا الكتاب عاجلاً وإيجازاً ما أمكن الإيجاز - خلافاً لما كنت أرغب من إطالة بسطه - هو نقل بعض أناس فصوله الأولى قبل الفراغ منه وإعادة النظر فيه. فرأيت أن أترك من موضوعه أشياء كثيرة كنت أروم أن أضيفها إليه لو ساعدني سكون الحال وسعة الوقت.

وكانت مباشرتي لتأليفه في إنجلترا وأنا بين مشاغلٍ بالٍ يعلم الله مقدارها. وقد تبسّر لي إتمامه في أيام سياحتي في مقاطعة كابوا (من أعمال إيطاليا) وقد سميت به باعتبار المواضيع التي يبحث فيها "لماذا تجسد الكلمة؟" وقسمته إلى جزأين أولهما يتضمن شيئاً من اعتراضات غير المسيحيين لأنهم يعدونها مغايرة لأحكام العقل مع ردود المسيحيين وهو يثبت بالحجج الراهنة - بصرف النظر عن وجود المسيح - استحالة الخلاص بدونه.

والجزء الثاني يظهر جلياً بالبراهين العقلية - مع صرف النظر أيضاً عن المسيح - أنَّ الجبلية البشرية ما كوّنت إلا لتلك الغاية وهي تمتّع الإنسان نفساً وجسداً بالسعادة الأبدية في حين من الأحيان. وأنه ينبغي أن يتمم ما خلق الإنسان لأجله ولا يمكن ذلك إلا بواسطة شخص يكون إلهاً وإنساناً معاً كال المسيح جامعاً بالضرورة كل ما نعتقده بالمسيح.

هذا وأرجو من ينقل هذا المؤلف أن يصدره بهذه المقدمة الصغيرة مع مواضيع فصوله حتى إذا ما وقع بيد أحدٍ يرى من عنوانه ما في طيه. وعسى أن يلقي من جملته ما لا يزدري به.



المحتويات

٣	 مقدمة دار الثقافة
٥	 مقدمة
	الجزء الأول
١١	 في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الأحكام العقلية

١٣	الفصل الأول: في مدار الكتاب
١٤	الفصل الثاني: في كيفية الإقبال على القضايا الآتي بيانها
١٧	الفصل الثالث: في اعتراضات غير المسيحيين وأجوبة المسيحيين
١٩	الفصل الرابع: في أن تلك الأجوبة تظهر غير مقنعة لمن لا يؤمن بها لأنها تشبه الحقائق وليست الحقائق نفسها
٢٠	الفصل الخامس: في أن فداء الإنسان لا يمكن أن يتم إلا بالله نفسه
٢١	الفصل السادس: فيما يعترض به من لا يؤمن على قولنا إن ابن الله فداننا بموته وإنه بذلك بين لنا محبته وإنه جاء ليغلب الشيطان
٢٣	الفصل السابع: في كيف يتراءى للبعض أن مقالنا أن المسيح احتمل بناسوته العار والهوان هو حط من شأنه. ولو كان ذلك لا يمس لاهوته. وكيف يظهر لهم منه أنه لم يمت بإرادته الحرة كإنسان
٢٦	الفصل الثامن: في أنه قد مات من تلقاء إرادته وما معنى «وضع نفسه وأطاع حتى الموت». ومعنى «لذلك رفعه الله» وكذلك «أني لم آت لأعمل مشيئتي» وأيضًا «ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت»

٣٠	الفصل التاسع: في كيف يمكن فهم المسائل عينها على وجه آخر
٣٤	الفصل العاشر: في ماهية الخطية والإيفاء عنها
٣٦	الفصل الحادي عشر: فيما إذا كان يليق بالله أن يغفر الخطية بمجرد رحمته دون الإيفاء عنها
٣٩	الفصل الثاني عشر: في أنه لا شيء أصعب احتمالاً بحكم الطبع من أن يسلب المخلوق ما وجب من الإكرام للخالق. ولا يؤدي حق ما سلبه
٤١	الفصل الثالث عشر: في أنه من أي وجه يعود الإكرام على الله من قصاص الخاطئ
٤٢	الفصل الرابع عشر: في إذا كان الله يحتمل أن يلحق بكرامته أدنى شيء من الأذى
٤٤	الفصل الخامس عشر: في أن الإنسان لا يمكنه الخلاص بدون الإيفاء عن الخطية
٤٧	الفصل السادس عشر: في أن الإيفاء ينبغي أن يكون بنسبة الخطية وأن الإنسان غير قادر أن يقوم به من نفسه
٥٠	الفصل السابع عشر: في ماهية ثقل الخطية
٥٣	الفصل الثامن عشر: في أن الإنسان باستسلامه لإبليس يهين الله إهانة لا يمكنه الإيفاء عنها
٥٤	الفصل التاسع عشر: في أن ما سلبه الإنسان من الله بارتكابه الخطية لا يمكنه إرجاعه له
٥٦	الفصل العشرون: في أنه ما دام الإنسان لا يرد لله ما له عليه فلا يمكن أن يكون مباركاً ولا يتبرأ لعجزه عن ذلك
٦٠	الفصل الحادي والعشرون: في أن خلاص الإنسان بالمسيح ضروري

الجزء الثاني

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة وأنه واجب أن يصل إليها وأنه يستحيل ذلك بدون واسطة شخص يكون إلهاً وإنساناً معاً. ٦٣

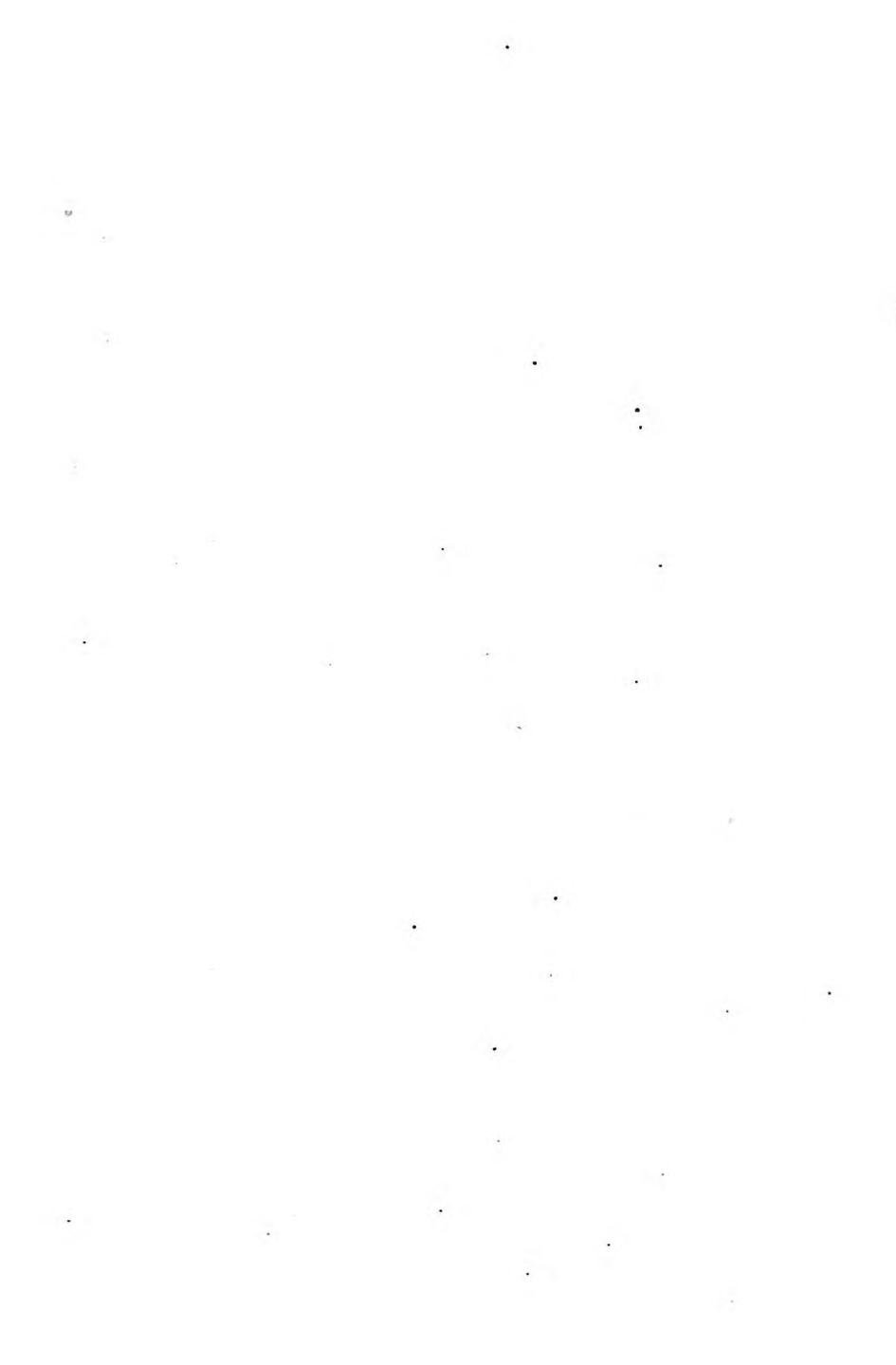
١٥	الفصل الأول: في أن الله خلق الإنسان مستقيماً ليكون مباركاً بتمتعته بالله
١٧	الفصل الثاني: في أنه لو لم يخطئ الإنسان لما ذاق الموت أصلاً
١٨	الفصل الثالث: في أن الإنسان يقوم بالجسد الذي عاش به في هذه الحياة
٧١	الفصل الرابع: في أنه يلزم أن الله يتمم ما بدأ به مما يختص بالخلقة البشرية
٧٢	الفصل الخامس: في أنه تعالى لا يفعل ذلك بحكم الضرورة ولو كان ذلك ضرورياً وفي ماهية الضرورة التي تزيل وجوب الشكر لأجل الإحسان أو تقلله وما هي الضرورة التي تزيده عِظْماً
٧٤	الفصل السادس: في أنه لا يستطيع أحد أن يقوم بالإيفاء الذي يخلص به الإنسان إلا الإله المتأنس
٧٦	الفصل السابع: في أنه يقتضي أن يكون ذات الشخص القائم بالإيفاء إلهاً كاملاً وإنساناً كاملاً معاً
٧٨	الفصل الثامن: في أنه من الضروري أن يتخذ الله الناسوت من جنس آدم من عذراء
٨١	الفصل التاسع: في أن هذا الإنسان لا يموت بحكم الموت الاضطراري. وهل يمكنه أن يخطئ أو لا يمكنه ولماذا وجب أن يحمد على بره إن كان لا يقدر أن يفعل الخطية

٨٤	الفصل العاشر: في أنه يموت من تلقاء إرادته الحرة وأن الموت ليس من خاصية الطبيعة الطاهرة
٨٨	الفصل الحادي عشر: في أنه لو شاركنا في الضعفات لا يكون تعيساً
٨٩	الفصل الثاني عشر: في أنه لا يشاركنا في الجهل مشاركته لنا في سائر الضعفات الأخرى
٩١	الفصل الثالث عشر: في كيف أن موته يفوق خطايا الجنس البشري مع عظمتها وكثرتها
٩٤	الفصل الرابع عشر: في كيف أن ذلك الموت يكفر عن ذنوب قاتليه أيضاً
٩٦	الفصل الخامس عشر: في كيف أن الله اتخذ من الجبل الخائنة ناسوتاً بلا خطية وفي خلاص آدم وحواء
١٠٠	الفصل السادس عشر: في كيف أنه لم يمت مضطراً حال كونه لم يأت إلا ليموت
١٠٤	الفصل السابع عشر: في أن ليس عند الله ضرورة ولا استحالة وفي ماهية الضرورة الموجبة والضرورة غير الموجبة
١٠٩	الفصل الثامن عشر: في كيف أن حياة المسيح تكفر عن خطايا البشر وكيف كان ينبغي أن يتألم وكيف لا ينبغي
١١٣	الفصل التاسع عشر: في كيف أن خلاص البشر قد حصل بموته
١١٦	الفصل العشرون: في عظمة رحمة الله وعدالته
١١٧	الفصل الحادي والعشرون: في أن خلاص إبليس من المحال
١١٨	الفصل الثاني والعشرون: في أن ما مربنا من القول يثبت صحة العهدين القديم والجديد

1

الجزء الأول

في إثبات استحالة الخلاص بدون
المسيح على موجب الأحكام العقلية



في مدار الكتاب

كثيرًا ما اقترح عليّ بالحاح شفاهًا وكتابة أن أدون بعض البراهين والبيانات التي من عاداتي أن أجيب بها على بعض قضايا إيماننا المسيحي لأنهم يستعذبونها ويرونها قاطعة. واقتراحهم هذا ليس لاتخاذ الأحكام العقلية أسسًا للإيمان. بل لأن نفوسهم تُبَنَّى بالحقائق التي تجود بها بصيرة المؤمنين وليكونوا دائمًا "على استعداد لمجابهة كل من يسألهم عن سبب الرجاء الذي فيهم" بالأجوبة القاطعة^١. وكثير من المسيحيين أنفسهم يسألون قائلين لأية علة وضرورة تأنس الكلمة (أعني به المسيح) وكيف بموته -كما نعتقد- وهب الحياة للعالم. في حين كان في وسعه أن يفعل ذلك بشخص آخر سواء كان ملاكًا أو إنسانًا أو بمجرد مشيئته. ومثل هذه الأسئلة تدور في خلد كثيرين من الخواص والعوام ويطلبون معرفة أسبابها فلذا رغب إليّ البعض في أن أنظر في هذه القضايا لعلي أكتشف غوامضها مع ما هي عليه من صعوبة الفهم والتفهم. آملي أنها تغدو بعد بيانها سهلة التناول ومقبولة لدى الجميع لما لها من الأهمية والنفع العظيمين. فحاولت أنا (ولئن كان الآباء القديسون قد تقدموني فتكلموا في هذا الصدد بالكفاية) أن أجيب دعوة منتدبيّ. فأبسّط لهم ما يكشفه لي أيضًا من ذلك أبو الأنوار. وبما أن المباحثات الجارية على طريقة المطارحة أقرب للأفهام وفي الخصوص العامة. لذلك اعتمدتها. معتبرًا مخاطبي مرقس أشد سائلي إلحاحًا فتجري المحاوره إذًا بين مرقس "س" السائل وانسلم "م" المجيب على هذا المنوال.

^١ ابط ٢: ١٥.

الفصل الثاني

في كيفية الإقبال على القضايا الآتي بيانها

مرقس "س" إذا كانت مراعاة الترتيب تدعونا أولاً إلى اعتقاد ما يلزم من الأمور العميقة في ديننا المسيحي قبل الإقدام على الجدل العقلي فيها. فأرى من التهاون المعلوم أن لا نطلب فهم عقائدنا بعد رسوخنا في الإيمان. فلذلك بما أني بنعمة الله الممسكة بي متمسكاً أنا بإيمان فدائنا ولا شيء يحول القدير يزعزعني عما أنا عليه. وإن كنت لا أستطيع تعليل ما أؤمن به. قد جئت أعيد عليك السؤال المتداول بين الكثيرين وهو: لأية ضرورة أو علة اتخذ الله القدير النزه الطبيعية البشرية على حطتها وضعفها ليجدد خلقها.

أنسلم "م" كلفتني ما هو فوق طاقتي. فإني أتهيب الدخول في هذا العباب الصعب الخطر خشية أن أجيء بشيء لا يقع من سامعه موقع الاستحسان. أو يرى فيه مطعناً فيتوهم الضعف في جوهر الحقيقة لا في عرض التعليل الناتج عن عجز في فهم الحقيقة.

(س) لا يلزمك أن تخشى ذلك متى ذكرت أن الله كثيراً ما يفتح في المذاكرات أبواباً موصدة ويكشف معها مخبوءاتٍ لم تكن في الحسبان. هذا وإذا كان القصد خدمة الحقيقة لتمجيد اسمه تعالى قياماً بما أوجبه على كل مسيحي. فهو يعينك ويقيك الزلل بروحه القدوس ويجعل كلامك سبباً لإرشاد من يقف عليه إلى طريق الهدى.

(م) وتوجد أسباب أخرى أرى أنه يعسر معها الآن فتح باب المباحثة في

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الاحكام العقلية

هذه المسألة أو تقضي وقتئذٍ أن نتكلم عن المقدره والضرورة وحرية الإرادة وأشياء أخرى لا يمكن أن نتفهم الواحدة بدون الأخرى. والنظر فيها يستلزم كما أرى تعباً ليس بالقليل على أنها لازمة للموضوع ومفيدة لأن جهلها يوجد صعوبة شديدة في فهم بعض المسائل.

(س) يتيسر لك الكلام عن هذه في محالها بالاختصار على ما يقتضي المقام وندع إطالة الشرح إلى وقت آخر.

(م) على كل حال أرى إجابة سؤالك متعذرة عليّ لأن موضوع كلامنا القيم أبرع جمالاً وأرفع كمالاً من بني البشر فيستلزم البرهان عليه إدراكاً فوق الإدراك البشري وتعبيراً وراء التعبير المعروف. فلذا لا أتجاسر أن أخوض في مبحثه الجليل على ما أنا عليه من الوهن وبما عندي من قلة المادة وخشونة الأسلوب لئلا يصادفني ما يصادف المصور الغير الماهر الذي يُقدّم على تصوير أجمل موجود بأقبح هيئة وأحقّر لون.

(س) وهذا أيضاً لا يجب أن يصدك: لأنك إذا كنت تجيز لمن هو أقوى منك حجة أن يجلي الأمر أكثر فأنت أيضاً لا تمنع من لا يعجبه أسلوبك أن ينسج أرق وأنقن. وقصارى القول إن هذا يضع حداً لكل أعذارك وأسالك أن تأتي ذلك. ليس للعلماء، بل لي ولأمثالي الذين يطلبون الوقوف عليه منك.

(م) إني على بغيتك وبغية الذين يبحثون معك في ذلك بالغيرة الخالصة وعلى قدر استطاعتي بمعونة الله أجيبك إلى مطلوبك أو بالأولى أكون معك طالباً إياه ولكن لا يغرب عنك أنه مهما أمكن القول في هذا الموضوع ومهما تيسر العلم منه فقد تبقى أمور شتى غامضة مكنونة في غور بحره العجيب.

(س) هذا بيّن. ولكن علينا عند النظر في أساس إيماننا أن نقدم

لماذا تجسد الكلمة؟

اعتراضات الذين يأبون التسليم بحقيقة هذا الإيمان بدون تصديق العقل لأن مطلوبنا ومطلوبهم واحد؛ إذ هم يطلبون البرهان لكونهم لا يؤمنون ونحن نطلبه لكوننا نؤمن. هذا وإن جئت في عرض أجوبتك بما يظهر أنه مخالف للكتب المقدسة فائذن لي أن أبينه لك لكي تزيل المخالفة الموجودة.

(م) قل ما بدا لك.

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الأحكام العقلية

الفصل الثالث

في اعتراضات غير المسيحيين وأجوبة المسيحيين

(س) إن غير المؤمنين يرموننا بحطة المدارك والسذاجة، ويطعنون علينا قائلين إننا نجور على الله جوراً ونشهره بما يعلو عنه علواً كبيراً: إذ نقول إنه هبط من السماء في أحشاء عذراء وتكوّن جنيناً ووُلِدَ طفلاً، ونما وتغذى بالألبان والطعام البشري... إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة التي تضرب صفحاً عنها تأدّباً، وأنه قاسى العناء واحتمل الآلام المبرحة وعرف مضض الجوع والعطش وأهين واحتقر وجُلِدَ وأخيراً مات مع أشقى اللصوص على خشبةٍ موتاً فظيماً.

(م) نحن لسنا نقول على الله تعالى بهتاناً، وحاشا أن نشهره بما يضع من شأنه الرفيع العزيز، بل ننشر سعة رحمته الفائقة شاكرين له الشكر اللائق بسموّ مقامه وعظيم جودته؛ لأن فدائه لنا كان بطريقةٍ عجيبةٍ ليس لعقلنا الإنساني العاجز أن يتصورها؛ فقد كنا غارقين في حمأة الرذائل والشرور فرُفِعنا منها إلى حالة الطهارة والقداسة. وأنقذنا من العقاب الذي كنا نستوجب به بالعدل والحق، سادلاً علينا ستر عنايته، وغامراً إيانا بعميم خيراته، وسابغ بركاته التي لا نستحق منها شيئاً، وبذلك تبين لنا منه رافةً ساميةً ومحبةً عجيبةً لا يحيط بهما الوصف والإدراك. وهم لو تأملوا في ذلك قليلاً بعين البصيرة لبدا لهم موافقة تجديد الجنس البشري بتلك الطريقة التي نعتقدها، ولما كانوا يرموننا بما يرمون. بل استبدلوا الهزء بنا

لماذا تجسّد الكلمة؟

بالشكر معنا لسعة حكمة الله ولطفه الغير المتناهي. لأنه كما بعصيان الإنسان الواحد أي (آدم) دخل الموت إلى البشر. هكذا أيضًا بإطاعة الواحد تُعطى الحياة. وكما أن الخطيئة -التي هي علة دينونتنا- قد نشأت من امرأة. هكذا وجب أيضًا أن يولد من امرأة رئيس تبريرنا وخلصنا. وكما أن الشيطان فاز بالغلبة على الإنسان بإغرائه إياه بأن يأكل من ثمرة الشجرة. فينبغي -على تلك الصورة عينها- أن يغلبه إنسانٌ باحتماله آلام الموت فوق الخشبة. وأمثال ذلك كثيرة لو تتبعوها وأمعنوا النظر فيها لظهر لهم جليًا لزوم الفداء الذي نلناه وحسن مناسبته.

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الاحكام العقلية

الفصل الرابع

في أن تلك الأجوبة تظهر غير مقنعة لمن لا يؤمن بها لأنها

تشبه الحقائق وليست الحقائق نفسها

(س) كل ما أبدت جميل ومقبول على سبيل التمثيل لرسوم الحقائق. إلا أن القول في هذا الموضوع إذا لم يكن متينًا وقائمًا على براهين قاطعة وحجج بالغة لا ينفع في الجدل مع من لا يؤمن بها. ولا يكون فيه إقناع لهم بوجوب التصديق والاعتقاد بأنه هكذا اقتضت مشيئة الله أن يتألم على ما نقول ونذهب. لأن من أراد التصوير مثلًا فليتخذ له شيئًا ما راسخًا كاللوح وما شاكله ليرسم عليه ما يرسم ولا يمكنه التصوير على وجه الماء أو صفحات الهواء. وأضغاث أحلام. فعلينا إذا أن نبين أولًا متانة هذه الحقيقية. يعني الضرورة التي دلت على إمكانية ووجوب تنازله تعالى ونزوله إلى الأرض (ليقوم بعمل الفداء الذي نثبتته) حتى تنجلي هذه الحقيقة الراهنة للعيان انجلاء الشمس في رائعة النهار.

(م) ألا يظهر لك داعٍ موجب - إنه لمّا كان النوع الإنساني أكرم خلائق الله عتيدًا أن يهلك بأسره. وكان من شأنه تعالى أن يتم قصده من نحو الإنسان. وذلك لا يمكن تنفيذه ما لم يمد الخالق نفسه يد الخلاص إلى مخلوقه اقتضى أن يعمل ما نقول به؟!

الفصل الخامس

في أن فداء الإنسان لا يمكن أن يتم إلا بالله نفسه

(س) لو قيل إنه كان من الممكن أن يكون ذلك الخلاص بواسطة شخص غير الله من ملائكة أو إنسانٍ بأية طريقة وُجِدَت لكان العقل يقبل ذلك بأكثر سرعةٍ وأسهل فهمٍ: إذ أنه تعالى كان يستطيع أن يخلق إنسانًا بدون خطية من غير الجبلية البشرية الخاطئة. كما خلق آدم. أو على كيفيةٍ أخرى وكان بذلك الإنسان يتم عمل الفداء

(م) ألا تعلم أن ذاك الذي يفدي الإنسان من الموت الأبدي يكون من حقه السيادة عليه. فيصبح الإنسان ملكًا له شرعيًّا؟ فلو كان الإنسان افتدي بمخلوق لما تيسر للإنسان إذ ذاك أن يسترد المقام الجليل الذي أضاعه بسقوطه في الخطية: إذ إنه عوضًا عن أن يكون عبدًا للشخص الذي افتداه. أي لمن هو ليس بالله. وليس على الملائكة (حينئذٍ) أن تقوم له بالخدمة الواجبة.

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الاحكام العقلية

الفصل السادس

فيما يعترض به من لا يؤمن على قولنا إن ابن الله فداننا بموته وأنه بذلك بيّن لنا محبته وأنه جاء ليغلب الشيطان

(س) يتعجب البعض من تسميتنا هذا الخلاص فداءً. فيقال لنا في أي مضيق أو سجين أو تحت سلطان من كنتم محبوسين حتى أن الله لم يقدر أن ينقذكم منه إلا ببذل نفسه فديةً عنكم بعدما قاسى العذاب الأليم؟ فإذا قلنا لهم إنه أنقذنا من عقاب خطايانا وهو غضبه من نار جهنم وسلطة الشيطان. وقد جاء بنفسه ليغلبه عنا؛ إذ كنا عاجزين عن ذلك. واسترد لنا الملكوت السماوي فأظهر لنا بذلك حباً عظيماً. يجيبوننا: إن قلتم إن ذاك الذي خلق (على اعتقادكم) كل ما يرى وما لا يرى بمجرد كلمته غير قادر أن يفعل ذلك بكلمة منه أيضاً تنسبون إليه العجز وتناقضون أقوالكم. وإن قلتم إنه كان قادراً ولكنه لم يُرد أن يفدنا إلا على تلك الصورة تمسون حكمته بإثباتكم إنه شاء أن يتألم بآلام غير لائقة بشأنه الإلهي من غير داع. لأن كل ما تدعون موقوف على إرادته. فغضب الله ما هو إلا محض رغبته في القصاص فلو لم يرد أن يعاقب البشر على ذنوبهم. لأصبح الإنسان بريئاً من تبعة آثامه معتقاً من عبودية الشيطان. آمناً سالماً من غضب الله وعذاب الجحيم؛ لأن كل هذه لاحقة به من جراء الخطية. وبذلك ينال ما حرّمه بسببها أيضاً؛ لأن من ذا الذي له السلطة على جهنم وجنودها أو لمن ملكوت السموات؟ أليس لمن كان به كل شيء وبغيره لم يكن شيء؟ فكل ما نرهب منه أو نرغب فيه منوط بمشيئة من لا يدفع أمره دافع ولا يحول دون مرامه حائل. فلو إنه كما تزعمون لم يشأ خلاص النوع البشري إلا بالطريقة

لماذا تجسّد الكلمة؟

التي تقولون بها. في حين كان قادرًا أن يأتيه بمطلق إرادته. أفلا يكون ذلك استهانةً بحكمته إذ لم نقل أكثر؟ فلو رأيتم أحدًا يعمل أمرًا ما بجزيل التعب والمشقة من غير داعٍ حال كونه يستطيع أن يفعله بأسهل سهولة تحسبونه حكيماً؟ بناءً عليه فإن قولك بأن الله بيّن بذلك مقدار محبته لكم غير مؤيّد بحجة ولا يؤخذ به ما لم تُظهر تَعذُّرَ خلاص الإنسان بطريقة أخرى. فإذا ثبت أن الخلاص غير ممكن بدون الطريقة التي تعتقدونها. لزم إذ ذاك أن يُظهر الله حبه في ذلك المظهر. ولكن متى ثبت أن ذلك كان مستطاعاً لديه فما الداعي لبيان محبته بمكابدة الآلام التي تدعون. ألعله لم يظهر أيضاً مقدار حبه للملائكة القديسين مع عدم معاناته الآلام من أجلهم. وتقولون أيضاً إنه نزل من السماء ليغلب الشيطان عنكم فماذا تعنون بهذا. أليس هو موجودٌ بقدرته في كل مكان؟ ألا يعم ملكه الكلّ وهو خالق الكل فكيف تنازل ليغلب الشيطان؟ وبهذا وأمثاله يعيرنا البعض ظانين أنها من الاعتراضات التي لا تُدفع.

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الأحكام العقلية

الفصل السابع

في كيف يتراءى للبعض أن مقالنا أن المسيح احتمل بناسوته العار والهوان هو حط من شأنه ولو كان ذلك لا يمس لاهوته وكيف يظهر لهم منه أنه لم يمت بإرادته الحرة كإنسان

(م) يجب أن نعتقد أن إرادة الله كافية وحدها لتكون سبباً لفعله أمراً ما. وإن كنا لا نعلم الغرض المقصود من فعل ذلك الأمر؛ لأن إرادة الله جل جلاله أنزه من أن تكون غير صائبة.

(م) وماذا يظهر لك غير معقول من قولنا إن الله أراد تلك الأمور التي نعتقد أنها في شأن تجسده.

(س) كفى أن نقول إن ذا الجلال الأعظم يتواضع إلى هذا الحد وذلك الحكيم القدير يعمل ما عمل بعناء هذا مقداره.

(م) إن الذين يقولون هذا لا يفهمون حقيقة معتقدنا ولا يعلمون سر إيماننا؛ فنحن لسنا نعتقد أن الطبيعة الإلهية قابلة التألم ولا إنه يمكن أن ينزل بها من أعالي جبروتها بوجهٍ من الوجوه. ولا أن تعمل عملاً ما بجهد أو تعب. إنما نقول إن الرب يسوع المسيح هو إلهٌ حقٌّ وإنسانٌ حقٌّ. وهو أقنومٌ واحدٌ بطبيعتين. وطبيعتان في أقنوم واحد. فلذلك عندما نقول إن الله احتمل الهوان والضعف لا يُفهم منه أنه احتمل بحسب الطبيعة الإلهية السامية المترفعة عن كل ألم. بل بحسب الطبيعة البشرية التي اتخذها. فلا يوجد هنا ما يناقض اعتقادنا؛ لأننا لا نعني أن تلك الصفة وذلك الضعف لَحَقًا بالجواهر الإلهي. بل نقصد إنه كان أقنومًا واحدًا وهو إله

لماذا تجسّد الكلمة؟

وإنسان معًا. فعليه. لا يجب أن يفهم إنه لحق بالله جل وعلا ضعة أو هوان بسبب التجسّد إنما الطبيعة الإنسانية قد تعالت فيه وتسامت.

(س) حسنّ ما تقول إن لا شيء يعزى إلى الذات الإلهية مما قيل إن المسيح احتمله بصفة كونه إنسانًا. ولكن كيف يمكن إثبات أن الله يعامل بالعدل والصواب أو يسمّح بأن يعامل هكذا ذاك الإنسان الذي دعاه "ابنه الحبيب الذي سرّ به" والذي قال عن نفسه إنه "الابن" وما هذا العدل الموجب تسليم أبر الناس إلى الموت عن الذنب. أو أي قاضٍ يحكم بقتل البار لإطلاق سبيل المجرم؟ ومن هنا تبدو المشكلة التي سبق ذكرها وهي إنه إذا لم يقدر أن يخلص المذنب إلا بالحكم على البار فأين قدرته؟ وإن كان قادرًا ولم يُرد فكيف ندافع عن حكمته وعدالته؟

(م) إن الله الآب لم يعامل ذاك "الإنسان" حسبما يترأى لك ولم يسلم البار (كما نقول) إلى الموت عن المجرم: إذ هو لم يجبره على الموت إجبارًا حتى ولا سمح بأمانته رغما عنه. إنما ذاك نفسه من تلقاء إرادته قد وضع حياته باختياره ليخلص الجنس البشري.

(س) إذا كان الآب لم يجبره على الموت إجبارًا: إذ قبل ذلك إتمامًا لمشينة الآب. ومع ذلك يبدو وكأنه حتم عليه بذلك حتمًا بأمر منه. إذ يقول الرسول عن المسيح إنه "وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب لذلك رفعه الله". ويقول أيضًا "تعلم الطاعة مما تألم به". وفي موضع آخر يقول عن الآب: "ولم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين". والابن نفسه يقول: "إني جئت لا لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني". ولما كان وشيكًا أن يدخل في الآلام قال: "كما أوصاني الآب هكذا أفعل". وأيضًا "الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها" وفي مكان آخر يقول "يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت".

في إِبْبات استحانة الخلاص بدون المسيح على موجب الاحكام العقلية

وأيضًا ”يا أبتاه إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيبتك“ فيظهر من كل هذه النصوص أن المسيح قد احتمل الموت بحكم الطاعة أكثر مما هو بمطلق إرادته الاختيارية.

لماذا تجسّد الكلمة؟

وإنسان معًا. فعليه. لا يجب أن يفهم إنه لحق بالله جل وعلا ضعة أو هوان بسبب التجسّد إنما الطبيعة الإنسانية قد تعالت فيه وتسامت.

(س) حسنّ ما نقول إن لا شيء يعزى إلى الذات الإلهية مما قيل إن المسيح احتمله بصفة كونه إنسانًا. ولكن كيف يمكن إثبات أن الله يعامل بالعدل والصواب أو يسمّح بأن يعامل هكذا ذاك الإنسان الذي دعاه "ابنه الحبيب الذي سرّ به" والذي قال عن نفسه إنه "الابن" وما هذا العدل الموجب تسليم أبر الناس إلى الموت عن الذنب. أو أي قاضٍ يحكم بقتل البار لإطلاق سبيل المجرم؟ ومن هنا تبدو المشكلة التي سبق ذكرها وهي إنه إذا لم يقدر أن يخلص المذنب إلا بالحكم على البار فأين قدرته؟ وإن كان قادرًا ولم يُرد فكيف ندافع عن حكمته وعدالته؟

(م) إن الله الأب لم يعامل ذاك "الإنسان" حسبما يتراءى لك ولم يسلم البار (كما نقول) إلى الموت عن المجرم: إذ هو لم يجبره على الموت إجبارًا حتى ولا سمح بأمانته رغما عنه. إنما ذاك نفسه من تلقاء إرادته قد وضع حياته باختياره ليخلص الجنس البشري.

(س) إذا كان الأب لم يجبره على الموت إجبارًا: إذ قبل ذلك إتمامًا لمشينة الأب. ومع ذلك يبدو وكأنه حتم عليه بذلك حتمًا بأمر منه. إذ يقول الرسول عن المسيح إنه "وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب لذلك رفعه الله". ويقول أيضًا "تعلّم الطاعة مما تألم به". وفي موضع آخر يقول عن الأب: "ولم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين". والابن نفسه يقول: "إني جئت لا لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني". ولما كان وشيكًا أن يدخل في الآلام قال: "كما أوصاني الأب هكذا أفعل". وأيضًا "الكأس التي أعطاني الأب ألا أشربها" وفي مكان آخر يقول "يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت".

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الأحكام العقلية

وأيضًا ”يا أبتاه إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك“ فيظهر من كل هذه النصوص أن المسيح قد احتمل الموت بحكم الطاعة أكثر مما هو بمطلق إرادته الاختيارية.

الفصل الثامن

في أنه قد مات من تلقاء إرادته وما معنى "وضع نفسه وأطاع حتى الموت" ومعنى "لذلك رفعه الله" وكذلك "أني لم آت لأعمل مشيئتي". وأيضاً "ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت"

(م) يبدو لي أنك لا تفرق تمامًا بين ما فعله بحكم الطاعة القاهرة وما تحمله بلا اضطرار محافظة منه على روح الطاعة.

(س) إنني محتاج إلى أن توضح لي ذلك أكثر إيضاحًا.

(م) لماذا اضطهده اليهود حتى الموت.

(س) لأنه كان متمسكًا بالحق والبر في حياته قولًا وفعلًا بدون تزعزع البتة.

(م) هكذا أظن لأن ذلك فرضٌ يطلبه الله من كل خليفة عاقلة وهي ملزمة بتأديته بحكم الطاعة.

(س) يلزمنا القول بذلك.

(م) إذا الطاعة كانت واجبةً على ذاك "الإنسان" لله أبيه وجوب طاعة الناسوت للاهوت. وأبوه نفسه قد طلب منه ذلك.

(س) هذا لا ريب فيه.

(م) وهنا ترى أن ما فعله كان قيامًا بما توحىه الطاعة له.

(س) هذا حق وإنني أرى الآن أن ما قاساه قد جلبه هو على نفسه

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الاحكام العقلية

لتمسكه بالطاعة: إذ أن كأس الموت التي تجرّعها كانت عقاب الإصرار على تلك الطاعة. إلا أنني لا أفهم كيف أن الطاعة نفسها لم تطلبه بذلك.
(م) لو لم يخطئ الإنسان أصلاً أكان من الواجب عليه أن يموت أو أن الله يقضي به عليه؟

(س) حسب اعتقادنا ما كان الإنسان ليزوق الموت ولا ليحكم به عليه وإني أرغب في أن أسمع منك برهان ذلك.

(م) ألا تسلّم بأن الخليفة العاقلة قد خُلقت مستقيمةً لتحصل على البركة بتمتعها بالله.

(س) هذا مُسلّم به.

(م) وأحسب أنك لا ترى أنه يليق بالله أن يكره من خلقه للسعادة في حالة الاستقامة والبرارة على مقاساة الشقاء لغير داعٍ مُوجِبٍ لذلك: إذ إنه لشقاء عظيم أن يموت أحد رَغَمًا عنه.

(س) هذا واضحٌ لأنه لو لم يخطئ الإنسان لما لاقَ بالله أن يقضي بموته.

(م) لهذا عينه لم يُكرِه الله المسيح المنزّه عن الخطية على أن يموت. ولكن المسيح من تلقاء ذاته وضع نفسه. ليس عن اضطرر. بل من أجل البر الذي كان محافظاً عليه كل المحافظة. حتى إنه عرّض نفسه للموت في سبيله. وقد يصح أن الآب أمره باحتمال الموت: إذ فرض عليه أن يعمل ما لأجله استوجب الموت. فامتثل لأمر الرب وشرب الكأس التي أعطاه إياها. وأطاع أباه حتى الموت. وبذلك "تعلم الطاعة مما تألم به" أي أنه تعلم كيف تجب المحافظة على الطاعة إلى المنتهى.

وأما قول الرسول: "إنه وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب"

لماذا تجسّد الكلمة؟

وأردف "لذلك رفعه الله وأعطاه اسمًا فوق كل اسم" يضارع ما قاله النبي داود "من النهر يشرب (لذلك) يرفع رأسه" فلا يصح أن يفهم منه إنه لو لم يطع حتى الموت لما وصل إلى ذلك الترفيع بطريقةٍ أخرى أو أن تلك الرفعة ما أعطيت له إلا مكافأةً عن تلك الطاعة؛ لأنه هو يقول عن نفسه قبل أن يبدي طاعته هذه "أن كل شيء قد دُفع إليّ من أبي. وأن كل ما للآب هو لي" بل لمّا كان هو والآب والروح القدس قد قصد أن لا يُظهر للعالم سمو قدرته إلا بموته فتكون كلمة "لذلك" هنا مرادفةً لكلمة "بذلك" أي "بذلك رفعه الله". وكثيرًا ما يقع مثل هذا فيقال عما عُمِلَ بواسطة أمر إنه عُمِلَ لأجله.

وأما قوله: "لم آت لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني" يماثل ما قاله في موضعٍ آخر: "إن تعلّمي ليس لي" لأن ما لله لا يجب أن يدّعيه أحدٌ لنفسه؛ إذ ليس لأحدٍ من ذاته حقُّ التعليم الذي يَعْلَمُ به كما أن ليس له من نفسه إرادةً مستقيمةً. بل من الله: فعلى ذلك لم يأتِ المسيح ليعمل مشيئته الخاصة. بل مشيئة الآب. لكون المشيئة القويمة التي كانت له قد أتت من الطبيعة الإلهية لا من الإنسانية. وأما قوله: "إن الله لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين" لا يُراد به إلا إنه لم ينقذه. وتوجد أشياء كثيرة مشابهة لذلك في الكتب المقدسة.

ويُفهم من قوله "يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس. ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت". وأيضًا "إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أن أنشربها فلتكن مشيئتك" إنه يشير بإرادته إلى رغبة البقاء الطبيعية الموضوعية في الإنسان لحفظ الذات التي بها ينفر الجسد البشري من آلام الموت. وأما إرادة الآب فلا يؤخذ منها إنه كان يؤثّر موت ابنه على حياته بل إنه لم يُرد أن يرجع إلى حالته الأولى النوع البشريّ إلا بإتيان الإنسان عملاً

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الأحكام العقلية

يساوي ذلك الموت. وقول الابن إن الآب أراد موته لا يعني أنه رضي بالموت في سبيل خلاص النوع؛ لأن سواه عجز أن يعمل ذلك العمل (كأنه موت ضرورة) بل كأنه يريد أن يقول "بما أنك لست تريد أن تتم مصالحه العالم إلا بذلك فأقول إذا إنك تريد موتي فلتكن إرادتك. أي ليكن موتي لكي يتصالح العالم معك". وكثيراً ما نستدل على أن فلاناً يريد أمراً ما لأنه لا يريد أمراً آخر إذ لو أراد هذا لما حصل على ذلك. كما نستدل مثلاً على أن فلاناً أراد أن يطفئ المصباح لكونه لم يرد أن يغلق النافذة التي أتى منها الريح فأطفأ المصباح. وعلى مثال ذلك أراد الآب موت ابنه لأنه لم يشأ أن يخلص العالم كما ذكر إلا بواسطة إنسان يقوم بذلك العمل العظيم. والابن نفسه لمّا كان يريد خلاص العالم وغير ممكن أن يجريه بوسيلة أخرى قبل الموت الذي به أتم ذلك الخلاص وعمل حسب الوصية التي أوصاه الآب فشرب الكأس التي أعطاه إياها طائعاً حتى الموت.

الفصل التاسع

في كيف يمكن فهم المسائل عينها على وجه آخر

(م) يمكن فهم هذه المسائل على الوجه الآتي: وهو إنه بحسب تلك الإرادة الصالحة الحرة التي أراد بها الابن أن يموت من أجل خلاص العالم قد أوصاه الآب بهذه الوصية. وأعطاه أن يشرب كأس الآلام مختارًا دون أن يشفق عليه. بل أراد موته باذلاً إياه لأجلنا أجمعين. والابن نفسه قد أطاع حتى الموت وتعلم الطاعة مما تألم به. وكما إنه كإنسان لم تكن له الإرادة أن يأتي عملاً مصيباً من ذاته بل من الله. كذلك لم يحصل على تلك الإرادة التي بها رضي الموت ليصنع هذا الخير العظيم إلا "من فوق من عند أبي الأنوار الذي منه كل عطية صالحة وكل موهبة تامة والذي ليس عنده تغيير ولا ظل دوران". وإذا قلنا إن الآب بإعطائه تلك الإرادة يجتذب إليه صح أن يقال إنه يستحث أيضاً؛ لأن الابن يقول عن الآب: «لا يقدر أحد أن يقبل إليّ أن لم يجتذبه الآب» فهكذا يمكن أن يقول إن لم يستحثه. وكذلك كان يمكن أن يقول أيضاً لا يسير أحد إلى الموت من أجل اسمي إن لم يجتذبه الآب ويستحثه لأنه إذا اجتذبت الإنسان إرادته أو استحثته على فعل أمر حثاً يسوغ القول إن لله يجتذبه أو يستحثه بإعطائه إياه تلك الإرادة. ولا يفهم من هذا الجذب أو الحث أنه إلزام قسري. بل تمسكٌ حيّ اختياريّ بتلك الإرادة المرضية عنده تعالى. فإذا كان من المحال الإنكار أن الآب بإعطائه ابنه تلك الإرادة قد جذبه أو حضه على الموت. فمن لا يرى بهذا الدليل عينه إنه قد أوصاه أن يحتمل الموت بالاختيار وأعطاه الكأس ليشربها غير مضطر. وإذا جاز أن يقال صواباً إن الابن لم يشفق على نفسه بل بذلها لأجلنا بمطلق

في إثبات استجابة الخلاص بدون المسيح على موجب الاحكام العقلية

إرادته. فكيف لا يقال بالصواب أيضًا إن الآب الذي منه تلك الإرادة لم يشفق عليه بل بذله لأجلنا وأراد موته. وعلى هذا النمط صار الابن طائعًا حتى الموت بتعلقه طوعًا. وبلا تردد بالإرادة التي اقتبلها من أبيه «وتعلم الطاعة مما تألم به» أي مشقة العمل الذي يعمل بالطاعة: لأنه حيث تحافظ الخليقة العاقلة بالاختيار -لا بالإجبار- على الإرادة المعطاة من الله. فهناك تكون الطاعة الحقيقية الخالصة. ولنا أوجه أخرى نستدل بها على أن الآب أراد موت الابن. منها: إننا نقول عمَّن ينفذ إرادة آخر بالفعل إنه هو يريد ذلك الأمر. وكذلك نقول عمَّن يستحسن إرادة آخر فقط دون أن ينفذها بالفعل إنه يريد ما يريد الآخر. مثالًا. لو رأينا أحدًا يريد أن يتحمل بعض الأذى في سبيل الوصول إلى رغبةٍ. وقلنا إننا نتمنى لهذا مكابدة تلك الآلام. فلا يكون تمنينا له ذات المشاق والعناء بل الحصول على الغاية التي يقاسي فيها الآلام. ومنها ما نقول عادةً متى نظرنا أحدًا قادرًا أن ينهَى عن أمر ولم ينهَ إنه يريد الأمر الذي لم ينهَ عنه. فعليه إذا كانت إرادة الابن تُسَرُّ الآب. والآب لم ينهَ عنها ولم يمنعه فعلها. فيثبت بالحقيقة أنه أراد الموت لابنه ولو كان لا يرغب له التألم.

وقوله «إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أن أشربها» لا يؤخذ منه إنه لو شاء أن يتجنب الموت لما استطاع إلى ذلك سبيلًا: لأنه -كما سلف- غير ممكن أن يخلص العالم بوسيلة أخرى. هو نفسه كان يريد أن يتجرع الموت ولا يهلك العالم بل قصد من تلك الكلمات أن ينبئ بأن لا خلاص لهم إلا بموته لا أن ينبئ بعجزه عن أن يفلت من الموت. وكل ما يمكن أن يقال عنه في هذا الباب لا يَحْمَلُ إلا على المحمل المنوَّه عنه إنه مات من تلقاء إرادته الحرة بدون اضطرار البتة: لأنه كان قديرًا. وإننا نقرأ عنه في ذلك «أما هو فتذلل ولم يفتح فاه كشاة تساق إلى الذبح». وأيضًا

لماذا تجسّد الكلمة؟

«أقسم له بين الأجزاء من أجل أنه سكب للموت نفسه». وهو نفسه يقول «لأنني أضع نفسي لأخذها أيضًا. ليس أحد يأخذها مني. بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن أخذها أيضًا». فإن كان قد وضع نفسه من سلطته الذاتية وإرادته الخاصة فلا يسوغ القول مطلقًا إنه أجبر على عمله إجبارًا.

(س) ولكن كيف أذن الآب بأن يعامل ابنه معاملته كهذه. وأن يكن هو راضيًا بها. إذ يظهر أنه غير لائق بشأن مثل ذلك الآب أن يريد ذلك لمثل ذلك الابن.

(م) وأي شيء يا ترى أليق بالآب من أن يرضى بما رضى به الابن من القيام بذلك العمل السامي العظيم الإيل إلى مجده الأسنى وخلص خلقه حال أنه لا يتم إلا على هذه الصورة.

(س) فلنعد إذًا إلى ما كنا فيه. من أين لنا أن نثبت أن ذلك الموت مناسبٌ ضروريٌّ فقد يبدو بالعكس أنه ليس من الواجب على الابن أن يرضى به أو يريده ولا من المقتضى أن الآب يلح أو يأذن به. ورب سائل يسأل: لماذا لم يستطع الله أن يخلص الإنسان بغير تلك الطريقة وإن كان مستطاعًا لديه فلم لم يَسْأَ خلاصه إلا بها مع أنه لا يظهر لائقًا بعزته الإلهية أن يخلص الإنسان كذلك. كما إنه لا تبدو منفعة ذلك الموت لخلص البشر؛ إذ يعد من الغرابة أن الله -تنزهت قدرته ورأفته- يفتقر إلى دم بريء أو يُسَرَّب بسفكه ولا يريد أو لا يقدر أن يستحي المجرم إلا بإماتة البار.

(م) بما أنك قمت في هذا البحث مقام من لا يصدق قولًا إلا مؤيدًا ببرهانه. فهل علم إذًا نتعاهد على أن لا نقبل أمرًا بيننا لا يليق أن ينسب إلى الله وأن لا نرد برهائنًا وإن كان ضعيفًا ما لم يدحض بأقوى منه إذ كما إنه محال أن

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الأحكام العقلية

يعزى إلى الله جل كماله شيءٌ عديمٌ اللباقة كذلك البرهان الضعيف الذي لم يدفع بأمتن منه يظل قائمًا.

(س) بكل مسرة أرتضي بهذا وأوافقك على مراعاته.

(م) ومدار الكلام بيننا إنما هو على تجسد الكلمة وعلى ما نعتقد من جهة صيرورة الله إنسانًا.

(س) أجل.

(م) لنفرض إذًا أن تجسد الله والأمور التي نقول بها عنه حالة كونه إنسانًا ليس لها وجود وإننا متفقان على أن الإنسان خُلِقَ للغبطة الدائمة التي لا يمكن الحصول عليها في هذه الحياة ولا يتيسر الوصول إليها إلا بعد غفران الخطايا وأنه يستحيل اجتياز هذه الحياة بدون ارتكاب الخطية إلى غير ذلك مما يقتضي الإيمان به لنوال الخلاص الأبدي.

(س) حسنًا ليكن كذلك. فإني لا أرى فيما تقول ما لا يليق بالله أو يستحيل عليه.

الفصل العاشر

في ماهية الخطية والإيفاء عنها

(م) من اللازم أن نسأل على ما يغفر الله للناس خطاياهم. ولإيضاح هذه المسألة جليًا. ننظر أولًا فيما هي الخطية وما هو الإيفاء عن الخطية.

(س) عليك أن تبدي وعلّي أن أسمع.

(م) لو كان الملاك والإنسان يؤديان إلى الله في كل حين ما يجب عليهما لم يخطئنا البتة.

(س) لا يمكن مناقضة ذلك.

(م) فإذًا ما الخطية إلا عدم إيفاء الدين إلى الله.

(س) وما هذا الدين الذي علينا لله.

(م) ألا يجب أن تكون إرادة المخلوق العاقل خاضعة لمشيئة الخالق.

(س) لا شيء أوجب من ذلك.

(م) هذا هو الدين الذي لله على الملاك والإنسان فمن منهما قضاء لم يخطئ. ومن لم يقضه أخطأ. هذه هي استقامة الإرادة التي هي خلاصة الإنسان المستقيم قلبه. أي إرادته. وهذا هو الإكرام الوحيد الكامل الواجب علينا تقديمه لله الذي يطالبنا به فإن مثل تلك الإرادة هي التي تقوم بالأعمال المرضية لله. ومتى عجزت عن أن ترضي الله بأعمالها فهي ترضيه إذ ذاك بنفسها؛ إذ لا عمل مقبول لديه بدونها. فمن لا يؤدي واجب الإكرام

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الاحكام العقلية

هذا إلى الله يكون قد سلب الله حقه ووضع من كرامته. وهذه هي الخطية بعينها. وهو ما دام لا يرد ما سلب فذنبه باق والتبعة لاحقة به. وليس بكافٍ أن يرد المسلوب بل تلزمه الزيادة التي تفرضها الإهانة الحاصلة: فإذا سبَّب أحد ضررًا لآخر عمدًا. لزمه ضمان الضرر وضمان ما يوازي الألم الحاصل من ذلك الضرر. وكذلك مَنْ حطَّ مِنْ كرامة صاحبه فلا يكفي أن يرد له الإكرام الواجب. بل عليه أيضًا التعويض الكافل بإرضائه عن الإهانة. ومما يلاحظ في هذا الشأن أن الغاصب الذي يرد المال المغصوب يجب عليه أن يعطي شيئًا لم يطالب به لو لم يعتد على غيره في ماله. وعلى ذلك يقتضي على كل من يفعل الخطية أن يرد لله واجب الإكرام الذي سلب. وهذا هو الإيفاء المطلوب من الخاطي لله.

(س) بما أننا توافقنا على ألا نرفض أمرًا مصحوبًا ببينة فليس عندي ما أعترض به عليك.

لماذا تجسد الكلمة؟

الفصل الحادي عشر

فيما إذا كان يليق بالله أن يغفر الخطية بمجرد رحمته دون
الإيقاع عنها

(م) فلنعد وننظر إذا كان يليق بالله أن يغفر الخطية بمجرد رحمته دون
أداء التعويض عن كرامته المسلوبة.

(س) لا أدري لماذا لا يليق به ذلك.

(م) إذا كان غفران الخطية ما هو إلا رفع العقاب وإذا كان الجزاء الحق
للخطية لا يتم إلا بالعقاب. فإن لم تعاقب حُسِبَت مغفورة بغير حق.

(س) أصبت فإن كلامك حقٌّ. يؤيِّده المنطق.

(م) ولكن لا يليق بالله أن يغفر ذنبًا في ملكوته بغير حق.

(س) لا أقول خلاف هذا لئلا أخطئ.

(م) إذًا لا يليق بالله أن يغفر خطيةً بدون عقاب عليها.

(س) هذا ينتج من ذاك.

(م) ولنا من ذلك نتيجة أخرى: فلو كانت الخطية تُغفَر بدون قصاص
لكان الصالح والطارح على قدم المساواة أمام الله الأمر الذي لا يجدر
بالعدالة الإلهية.

(س) لا يَسْعُنِي إنكار ذلك.

(م) ولا حظ أيضًا أن بر الناس حسب الناموس يكافئه الله حسب درجته

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الأحكام العقلية

بمقياس المكافأة.

(س) هكذا نعتقد.

(م) ولكن إن كانت الخطية غيرَ موقَّى عنها ولا مُعاقب عليها فهي ليست بخاضعة لنا موسى البتة.

(س) معلوم.

(م) فعلى ذلك لو كانت الخطية تُغفَر بمجرد الرحمة. لكان الإثم أكثر حرية من البر وهذا لا يليق أبدًا. ولا يوافق. فضلًا عن أن الإثم يجعل الأثيم إذ ذاك مشابهًا لله من حيث الخربة. فيكون كالله. جل عن النظر. غير خاضع لشرعية ولا مُقَيَّد بقيد.

(س) لا أقوى على مناقضة مثل هذا الاستدلال. بيد أن الله كيف يأمرنا بالصفح دائمًا عن المذنبين إلينا في حين لا يزكو ذلك به نفسه. إن هذا من التناقض الصريح.

(م) لا يوجد في الأمر تناقض البتة. فإن الله يأمرنا بهذا لكيلا نشاركه فيما هو من حقه: إذ ليس لأحد أن ينتقم إلا الذي هو رب الكل وأما الرؤساء الأرضيون الذين يقومون بهذا العمل بالحق والعدل فهم خدام الله ومُرتَّبون منه وأمناءه على هذه الخدمة.

(س) قد أزلت التناقض الذي كنت أظنه قائمًا ولكن في الأمر مشكلة أخرى أود لو تحلها لي. فيما أن الله حر بهذه الدرجة حتى لا يُقَيَّد بشرعية قطعًا. ولا بحكم من الأحكام البشرية وهو بهذا المقدار حلیم حتى أن العقل يعجز عن تصور قدر ذلك الحلم الفائق. وأنه لا يريد إلا ما هو حق ولا نوق فأی شيء أغرب من قولنا إنه لا يريد أبدًا أو أن لا يرضى أن يغفر السيئات التي

لماذا تجسّد الكلمة؟

نفعلها ضده مع أننا اعتدنا أن نستغفره مما نسيء به إلى غيرنا.

(م) إن ما تقول عن حرية الله ومشينته وجوده حق لا ريب فيه غير أنه يجب علينا أن نفهم حقيقة هذا تمامًا لكي لا نمس من عظمة المقام الإلهي. فالحرية لا تقوم إلا بما هو موافق ولائق. والحلم لا يدعى حلمًا إن نجّم عنه شيء عديم اللياقة. وأما ما يقال إن ما يريده الله فهو حسن وما لا يريده فهو قبيح. فلا يلزم أن نحمله على معنى إنه لو أراد جل جلاله شيئًا غير لائق يكون ذلك الشيء حسنًا لمجرد كونه أراد؛ لأنه إذا شاء جل وعلا مثل أن يكذب لما نتج من ذلك أن الكذب فضيلة. بل بالحري أن الكاذب ليس بإله. فالإرادة لا يمكنها أبدًا أن تميل إلى الكذب إن لم يكن الحق قد اختفى فيها أو تكون هي نفسها قد فسدت لابتعادها عن الحق. وقولنا لو شاء الله أن يكذب (أي لو كان من طبيعته الجنوح إلى الكذب) فلا يستنتج منه أن الكذب فضيلة بل يفهم منه ما يفهم من تكلمنا عن قضيتين مستحيلتين. فإن أمكنت الأولى أمكنت الأخرى أيضًا؛ لأن كلتا القضيتين غير ممكنتين فلو قيل إن الماء جافّ تسنى أن يقال إن النار رطبة لأن الحالتين كلتاها مستحيلتان. وعلى ذلك يصح أن يقال إن كان الله يريد أمرًا كان ذلك الأمر حقًا. اللهم إن كان من الأمور التي تليق به أن يريدها فلو يشاء الله أن تمطر لكان موافقًا أن تمطر وإن رام أن يُقتل أحد كان من العدل أن يُقتل. ولكن إذا كان لا يليق بالله أن يأتي أمرًا غير عادل أو غير نظامي. فليس على حريته ولا على رأفته ولا على مشينته أن تصفح عن خاطئ لم يُعاقب ولم يوف الله حقه عما سلبه منه.

(س) قد سلبتني كل ما كنت أظنه وطيدًا للاعتراض به.

(م) أتدري لماذا لا يليق بالله أن يفعل ذلك؟

(س) كلا ولكنني كُلي مسامع إلى ما تقول.

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الأحكام العقلية

الفصل الثاني عشر

في أنه لا شيء أصعب احتمالاً بحكم الطبع من أن يسلب
المخلوق ما وجب من الإكرام للخالق ولا يؤدي حق ما سلبه

(م) لا شيء أصعب احتمالاً بحكم الطبع من أن يسلب المخلوق ما
وجب من الإكرام للخالق ولا يؤدي حق ما سلبه.

(س) هذا واضح.

(م) وكأنني بك ترتني أن الله سبحانه يقتضي أن يتساهل فيما ليس
أصعب احتمالاً منه. وهو عدم رد المخلوق لله ما سلبه منه.

(س) حاشا. بل أرى وجوب إنكار ذلك على الإطلاق.

(م) هذا وإن كان الله فوق جميع الأشياء وأعظم منها. كان أعدل شيء
في الوجود المحافظة على كرامة الله أي العدالة الكاملة وهي خلاصة
صفات الله.

(س) ولا شيء أوضح مما نقول.

(م) إذاً لا شيء يقتضي الصون والمحافظة لدى الله أكثر من كرامة
مقامه.

(س) وهذا لا بد لي من التسليم به أيضاً.

(م) أیظهر لك بعد أن الله لو سمح بوقوع ذلك لسلب ولم يسترد
المسلوب ولم يعاقب السالب يكون قد حافظ على كرامته السامية

لماذا تجسّد الكلمة؟

المحافظة الحقّة التي لا تشوبها شائبة؟

(س) لا أجسر أن أقول ذلك.

(م) فعلى ذلك ينبغي أن يسترد الكرامة الممتّنة أو يجري العقاب.
وإلا فالعدالة والقدرة الإلهية لا تجريان في مجاريهما وهذا لا يجوز تصوّره
قطعاً.

(س) بالصواب نطقت.

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الأحكام العقلية

الفصل الثالث عشر

في أنه من أي وجه يعود الإكرام على الله من قصاص الخاطئ

(س) ولكن أروم أن أسمع منك هل أن قصاص الخاطئ يعود بالإكرام إلى الله وكيف يكون ذلك؟ لأنه إن كان الخاطئ يُعاقب إذًا لم يرد ما سلبه وكان عقابه غير ممجّد لله فعلى هذه الحال يفقد الله حقَّ إكرامه فقدانًا لا وجود بعده وذلك يظهر مباينًا لما قلت.

(م) من المحال أن يفقد الله حقَّ إكرامه: لأنه إما أن يؤدي الخاطئ ما عليه طوعًا، أو أن يأخذه الله منه قسرًا. إذ لا بد للإنسان من تقديم واجب الخضوع لله إما اختياريًا أو اضطراريًا فيخضعه الله رغما عنه إثباتًا لما له عليه من حق السيادة التي يأبى أن يقرب بها من نفسه. ومن الملاحظ في هذا الشأن أن الإنسان بفعله الخطيئة يستولي على حق الله وكذلك الله بمعاقبة الإنسان يستولي على ما له. لأن التملك لا يقتصر على الأشياء التي في يد المالك فقط بل يتعداها إلى كل ما في استطاعته أن يحوزه ويمتلكه أيضًا. ولما كان الإنسان قد خلق للسعادة وفي إمكانه الحصول عليها إن تجنب الخطيئة. فإذا فقد هذه السعادة وجميع الخيرات بسبب الخطيئة يكون قد عوض الله ما سلبه منه بما هو من ملكه الخاص. ولو كان ذلك على كراهية منه. نعم إن الله لا ينتفع بما ينتزعه من الإنسان كما ينتفع الإنسان بالمال الذي يغتصبه من قريبه. ولكنه يستخدم هذا المنتزع لكرامته ومجده بمجرد الانتزاع فقط وبذلك يثبت "أن العبد وما ملكت يده في قبضة مولاه".

الفصل الرابع عشر

في إذا كان الله يحتمل أن يلحق بكرامته أدنى شيء من الأذى

(س) يعجبني ما أتيت به ولكن أطلب إليك أن تجيبني عن أمر آخر. وهو إن كان من المحنم أن يحافظ الله على كرامته كما برهنت فكيف يحتمل أن يلحق به شيء من الأذى؟ لأن ما أصيب بأذى ولو طفيفاً من أي طريق كان لا يعتبر مصوناً حق الصيانة.

(م) لا يمكن أن يعتري كرامة الله نقص أو تطراً عليها زيادة من حيث هي؛ لأن جوهر تلك الكرامة غير قابل الفساد ولا التغيير البتة. ولكن متى سارت الخليقة في السُّنة الموضوعة لها وفعلت ما أُمِرت به طبيعياً كان أو عقلياً يقال عنها إنها تطيع الله وتكرمه. ويطلق هذا بالخصوص على العاقلة منها التي أُعطي لها أن تفهم ما يجب عمله فهي تكرم الله عندما تريد القيام بواجباتها. ليس أنها تخوله شيئاً بل لأنها تدعن عن رضى لإرادته تعالى ومقاصده. وتحافظ على ما يتعلق بها من المقام والنظام في عالم الأشياء وعلى جمال هذا الكون المنظور. وأما حينما تأبى القيام بما وجب عليها فهي تهين الله بعدم خضوعها بالاختيار لتدابيره السامية وتشوش وتشوه من نظام الوجود وجماله على قدر إمكانها وإن تكن لا تمس من عظمة الله ولا تحط من مقامه. هذا ولو كانت الأشياء المنحصرة في دائرة السماء لا تريد البقاء تحت السماء فهي كلما فرت منها وقعت فيها وكلما ابتعدت عنها اقتربت إليها. فمن أية جهة جاءت وإلى أية جهة ذهب وفي أية جهة مرت يكون مجيئها منها وذهابها إليها ومرورها تحتها. وهكذا ما من إنسان أو ملاك شرير يأبى الخضوع للإرادة الأمرة تستقبله الإرادة الناقمة. وإن

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح عنى موجب الأحكام العقلية

سألت من أين مر تجده مر في طريق الإرادة الأذنة حتى أن ما ينوي من الشر أو يفعله تحوله الحكمة العلية إلى خير نظام هذا الكون وبهائه. فلذلك كان الإيفاء الطوعي عن الشر أو مطالبة العقاب عليه ممن لم يوف عنه لهما مكانة في هذا الكون ودخل في حسن ترتيبه (وقد ثبت مرارًا بكل وضوح أن الله يُخرج من الشر خيرًا بطرق متنوعة) إذ لو لم تكن الحكمة قد رسمت بوضع هذين الغرضين حيث يحاول الشر أن يخل بالنظام النظيم. لنشأت في وجه جمال الكون الذي يدبره الله عاهات شائنة وظهر أن عمل الله في ترتيب الأمور ووضعها في مواضعها قد أحبط. وكلا الأمرين غير لائقين فهما مستحيلان فوجب إذا وجوبًا أن يعقب الخطية أما الإيفاء وأما القصاص.

(س) قد أقنعتني.

(م) فيتضح من هنا أن ليس لأحد أن يكرم الله أو يهينه من حيث هو. وأما بالنظر إلى الإنسان فقد يظهر أنه يأتي ذلك بإخضاع إرادته لمشيئته تعالى أو بعدم إخضاعها.

(س) لست أدري بماذا أعترض على ذلك.

لماذا تجسّد الكلمة؟

الفصل الخامس عشر

في أن الإنسان لا يمكنه الخلاص بدون الإيذاء عن الخطية

(م) إذا اعتقدنا أن الله قدوس طاهر وأن مسكنه مقدس منزّه عن كل نجس. لزمنا القول بأن مسكنه لا يدخله إلا كل طاهر مقدس.

(س) كلنا نقول بذلك.

(م) ومعلوم أن الإنسان المصنوع على صورة الله قد خُلِقَ للسعادة الدائمة التي لا يمكنه التمتع بها إلا في مسكن الله فوجب إذاً أن يكون طاهرًا ليفوز بما هو مخلوق له.

(س) وإن لم يفرز يكن شقيًّا ومحال أن يكون الله خلقه للشقاء أو إنه لم يستطع أن يبلغه إلى ما خُلِقَ له.

(م) أيمكنك أن تتصور كيف أن الإنسان الذي أخطأ ولم يوفِّ الله عن خطاياه بل غفر له بدون قصاص يكون طاهرًا كالملائكة الذين لم يعرفوا الخطية قط ومساويًا لهم أو أعلى منهم.

(س) يمكنني أن أتصور ذلك وأنطق به. لكنني أعجز عن فهم معناه كما أنني عاجز عن أن أفهم كيف أن الباطل يكون حقًا.

(م) فإذا لا يليق بالله أن يقبل في مسكنه الإنسان الخاطيء بدون إيذاء: لأن الحق يأبى أن يرفع هذا إلى قدس الأقداس فيساوي هناك الأظهار أو يعلوهم.

(س) هذا يثبت العقل.

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الأحكام العقلية

(م) بل دع مسألة مساواة الملائكة وانظر في حالة الإنسان على حدة هل من الواجب أن يرفعه الله إلى السعادة أو إلى حال السعادة التي كان فيها قبل ارتكابه الخطية.

(س) قل أنت ما بدا لك وأنا أتأمل على قدر وسعي فيما تقول.

(م) لنفرض أن إنسانًا غنيًا في يده لؤلؤة كثيرة الثمن سليمة من كل عيب لا يمكن لأحد أن يأخذها من يده إلا بإذنه. وهو يريد أن يخبئها في خزينته حيث يحرز أئمن أملاكه وأنفسها.

(س) أرى ذلك كأنه نصب عيني.

(م) فلو أذن لحاسد له أن يرمي بهذه الدرة من يده في الحماة مع إنه كان في استطاعته أن يمنعه من ذلك. ثم رفعها من موقعها ملوثة بالأقدار وخبأها في حرز بلا غسل قاصدًا أن يذخرها دواءً على هذه الحال أتحسب ذاك الإنسان حكيماً؟

(س) عندي إنه كان خيرًا له أن يحفظ لؤلؤته في يده نظيفة من أن يخبئها في كنزه متسخة.

(م) هكذا الله الذي كان يحفظ الإنسان في يده بلا خطيئة كالملائكة في الفردوس قد سمح لإبليس المضطرم بنيران الحسد والغيرة أن يلقي به (وإن يكن عن رضى منه) في حماة الخطية وهو لو منه إبليس لما كان امتحن الإنسان. قلت إنه لو أرجع الإنسان إلى الفردوس الذي طرد منه ملطخًا بقذر الخطية بلا تطهير أي بدون وفاء عن الخطية كي يبقيه في تلك الحال على الدوام أما كان يحسب فعله نظير فعل ذاك تمامًا؟

(س) لا أنكر وجه المشابهة بينهما لو فعل الله مثل ذلك. ولكن لا أرى

لماذا تجدد الكلمة؟

إمكانية فعله هذا الأمر: لأنه من المحال يدخل إلى ملكوته شيء غير طاهر كما يستحيل أن يكون قد خلقه للشقاوة أو إنه لم يقدر أن يوصله إلى ما قد خلق لأجله كما قلت.

(م) كن إذا متيقنًا جيدًا إنه بدون إيفاء الدين اختياريًا لا يمكن أن يصفح الله عن الخطية بلا عقاب ولا يتيسر للخاطي بلوغ السعادة ولا أن يسترد السعادة التي كان فيها قبل فعله الخطية.

(س) لا أقدر أن أعارض أدلتك غير إنه ما معنى قولنا لله "اغفر لنا ذنوبنا" وكل المؤمنين به يصلون إليه أن يغفر لهم سيئاتهم. فإن كنا قضينا ما علينا فلماذا نبتهل إليه أن يغفر لنا؟ هل الله قاس على عباده حتى يطالبهم ثانية بالدين المقضي؟ وإن كنا لم نقض ما علينا، فإذا نسأله عتبًا أن يعمل ما لا يتأتى له عمله؛ إذ إن المغفرة من غير إيفاء غير لائقة به.

(م) إن من لم يقض دينه فباطلاً يستغفر. وأما من قضى فيبتهل لأن عين الابتهاال جزء من قضاء الدين. وليس الله بمدين لأحد بشيء بل جميع؛ الخلائق مدينة له فلذا ليس للإنسان أن يسلك مع الله سلوك الند للند. على أنني لا أرى من حاجة إلى إجابتك عن هذا السؤال فمتى عرفت لماذا مات المسيح لعلك تفهم وقتئذٍ من نفسك ما تسأل عنه.

(س) حسبي الآن ما أجبنتني به في هذا الصدد. وإنني لو أردت أن أرتاب فيما لا أوضحته بأجلى إيضاح من أن لا سبيل للإنسان إلى السعادة وهو في حال الخطية. ولا عتق له من رق الخطية إلا بعد رد ما سلبه باقتراف الخطية لما لا استطعت إلى ذلك سبيلًا.

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الأحكام العقلية

الفصل السادس عشر

في أن الإيفاء ينبغي أن يكون بنسبة الخطية وأن الإنسان غير قادر على أن يقوم به من نفسه

(م) وأظنك لا ترتاب أيضًا في أن الإيفاء يجب أن يكون بنسبة الخطية وعلى قدرها.

(س) وإلا فيبقى حساب الخطية غير مُسدّد تمامًا والله لا يدع في ملكوته شيئًا مختلًا وقد تقرر أن ما كان غير لائق بالله فهو محال.

(م) فإذًا أي شيء تؤدي لله عن خطيتك.

(س) أو لست أكرم الله باعتزالي عن المسرات في سبيل تقواه ومحبته وندامتني القلبية وقيامي بالصيام والأعمال الصالحة دائسًا ملذات هذه الحياة وراحتها معطيًا بسخاء مما لي صافحًا لمن أساء إليّ طائعًا له تعالى بكمال الخضوع والخشوع.

(م) إذا كنت ترد لله بعض ما له عليك على فرض أنك لم تخطئ أصلًا، فلا ينبغي أن تعد ذلك قضاء للدين الذي عليك من جراء الخطية؛ لأنك مدين لله بكل ما ذكرته؛ إذ إن المحبة في هذه الحياة الزائلة والتشوق (وما يتعلق به من التضرع والدعاء) إلى بلوغ الغاية التي خلقت لها والحزن لتباطؤ الحصول عليها والخوف من عدم إدراكها، كل ذلك يقتضي أن يكون متأصلًا فيك بهذا المقدار حتى أنك لا تعود تشعر بمسرة إلا في ما يساعدك للتوصل إليها؛ لأن الرغبة التي لا ترغب فيها وتتشوق إليها على قدر ما هي

لماذا تجسّد الكلمة؟

ولا تتوجع لتأخر نوالها وتخشى من عدم إدراكها لست مستحقاً أن تحظى بها. ومن ذلك أيضاً الفرار من التمتع والملاذ الدنيوية التي من شأنها أن تشغل النفس عن هذه الراحة والملاذ الحقيقية.

وأما العطاء فيجب أن تعتبره كدين عليك؛ لأن ما تعطيه لم يأترك من نفسك بل من ذاك فأنت ومن تعطيه عبدان له والطبيعة نفسها أيضاً تعلمك أن تفعل بالعبد رفيقك ما تريد أن يفعله بك. أي تعلم الإنسان كيف يجب أن يعامل الإنسان هذا. ومن لا يريد أن يعطي ما له لا يحق أن يأخذ ما ليس له. وأما عن العفو فأقول بالاختصار ليس لك أن تنتقم مطلقاً كما شرحنا ذلك في محله لأنك لست لذاتك ولا الذي أضربك هو لك أو لذاته بل كلاهما عبدان لسيد واحد صنعكما من العدم؛ فإذا أضرتت بالعبد رفيقك تكون قد اعتديت على حقوق سيد المبرّوات وحاكمها. وأما عن الطاعة أفترض أنك تؤدي بها لله ما ليس بواجب عليك أو لا تعلم أنك مدين له بكل كياناتك وكل مقتناتك وكل إمكاناتك.

(س) لا أجسر أن أقول بعد أنني أعطي لله شيئاً من كل ذلك؛ لأنني مدين له به كله.

(م) فاي شيء تؤدي إذاً لله عن خطيتك؟

(س) إذا كنت مدينّاً له بذاتي وبقدرتي أو بكياني وإمكاناتي. فعلى فرض أنني لم أقع قط في خطأ فأبني بذلك أيضاً لست مبرّراً؛ إذ ليس لي ما أرد عن إثمي.

(م) إذاً ماذا يحل بك وكيف يمكنك الخلاص؟

(س) إن اعتمدت على مفاالك لا أرى سبيلاً للخلاص. ولكن إن اعتمدت على إيماني المسيحي العامل بالمحبة فأني أتيقن نوال الخلاص. على ما

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الأحكام العقلية

نقرأ في نبوة حزقيال ”وإذا رجع الشرير عن شره الذي فعل وعمل حقًا وعدلاً فهو يحيي نفسه“.

(م) هذا لم يقل إلا عن الذين كانوا ينتظرون المسيح قبل مجيئه أو عن المعتقدين به بعد مجيئه. ولكننا قد اتفقنا على أن نبحث عقليًا فيما إذا كان مجيء المسيح ضروريًا لخلاص البشر مع قطع النظر عن وجود المسيح والإيمان المسيحي.

(س) أجل هذا ما اتفقنا عليه.

(م) فلنتمم إذًا بحثنا في دائرة الأحكام العقلية.

(س) إني وإن كنت تسير بي في مضيق حرج أرغب كثيرًا في أن تنمم ما شرعت به على نسق واحد.

لماذا تجسد الكلمة؟

الفصل السابع عشر

في ماهية ثقل الخطية

(م) لنفرض أنك لست مدينًا بكل ما ظننت أنه يمكنك أن تؤديه عن خطيتك ولننظر هل في ذلك كفاية للإيفاء عن أصغر هفوة صدرت منك مثل إلقاء نظرة بعينك ضد إرادة الله.

(س) لو لم تطرح هذا السؤال لبقيت ظانًا أنني أستطيع محو خطيتي، بندامتي.

(م) أراك لا تعرف إلى الآن عظم ثقل الخطية.

(س) عرفني به الآن.

(م) لو وجدت في حضرة الله على مرأى ومسمع منه وقال لك أحد: "انظر إلى هذه الجهة" وقال لك الله: "لست أريد أن تنظر إليها مهملاً كانت الحال" فاسأل نفسك هل يوجد في الكائنات بأسرها ما يلجئك إلى أن تلقي تلك النظرة ضد إرادة الله.

(س) لا أرى داعيًا إلى فعل ذلك إلا إذا كنت في ضرورة قصوى تلجئ إلى فعله أو إلى ارتكاب خطية أعظم.

(م) ضع جانبًا هذه الضرورة وتأمل في ذات الخطية وحدها. تأمل فيما إذا كان جائزًا لك أن تفعلها ولو في تخليص نفسك.

(س) أرى جليًا أنه لا يجوز لي ذلك أبدًا.

(م) ولكي أختصر أسألك: "لو خُبرت بين أن يهلك العالم بكليته وكرال

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الاحكام العقلية

شيء ما خلا الله ويصير إلى العدم وبين أن تفعل أنت أدنى فعل مخالف لإرادة الله فأيهما تختار وتفضل؟“

(س) إذا نظرت إلى ذات الفعل أراه طفيفاً ولكن إن سبرته ونظرت فيه من وجه مخالفته لإرادة الله أجده على جانب عظيم من الخطورة لا يوازيه خسران على الإطلاق. وأحياناً نعمل عملاً غير ملوم ضد إرادة أحدهم خدمة لمصالحه وبعد ذلك نرى أن ذلك الفعل عينه قد أراضاه.

(م) هذا يقال عن الإنسان الذي لا يعلم غالباً ما هو نافع له أو لا يستطيع استرجاع ما فقد. وأما العليم سبحانه فليس بمفتقر إلى شيء وهو قادر إن هلك الأشياء جميعها على أن يعيدها كما أبدأها.

(س) يلزمني الإقرار ألا يجب عليّ فعل أمر يغير إرادة الله وإن كان به حفظ المخلوقات كافة.

(م) فلو وجدت عوالم كثيرة ملأى بالمخلوقات كعالمنا هذا فماذا نقول؟

(س) لو أروني بعين الرأس هذه العوالم غاصة بالخلائق التي لا تحصى لما كان عندي جواب غير هذا.

(م) ولا يمكنك أن تجيب بأصوب منه ولكن لو أقيمت تلك النظرة ضد إرادة الله فأى شيء تستطيع أدائه عن هذه الخطية.

(س) ليس عندي سوى ما قلت سابقاً.

(م) هكذا كل فعل تأتية عمداً مما يضاد إرادة الله ولو كان من أصغر الصغائر هو خطية ثقيلة وجسيمة: لأننا نحن دائماً في حضرة الله وتحت نظره وهو دائماً ينهانا عن ارتكاب الخطية.

(س) على قدر ما وصل إليه علمي. أرى أن حياتنا مهددة بخطر عظيم.

لماذا تجسّد الكلمة؟

الفصل التاسع عشر

في أن ما سلبه الإنسان من الله بارتكابه الخطية لا يمكنه
إرجاعه له

(م) وهاك أمر آخر مستحيل أيضًا مع ذلك. لا يمكن بدونه أن تتمم
بالعدالة مصالح الإنسان مع الله.

(س) إن ما بسطته إلى الآن مما يجب علينا فعله كافٍ حتى مهما
اضفت إليك لا يمكن أن يزيدني خوفًا ورعبة.

(م) قل لي ماذا اختلس الإنسان من الله باستسلامه لإبليس لكي يغلبه.

(س) قل أنت وتمم ما شرعت به فأني أجهل ما يمكن أن يزيده على
بلاباه أكثر مما ذكرت.

(م) أما اختلس من الله ما كان الله قد قصد أن يصنعه إلى الخليقة
البشرية.

(س) لا يمكن إنكار ذلك.

(م) تبصر في الأمر قليلًا واحكم منصفًا هل يوفي الإنسان الله الإيفاء
الحق العادل عن الخطية أن لم يسترجع بغلبته على إبليس عين الشيء
الذي سلب من الله باستسلامه لإبليس لكي يغلبه لكي يكون كما بانقلابه
قد أخذ إبليس ما كان له (أي الإنسان) ففقد الله ما كان له كذلك بغلبته
يخسر إبليس ويسترد الله. لأنه كما بانغلاب الإنسان سرق الشيطان ما لله

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الأحكام العقلية

والله فقد ما له كذلك أيضًا بغلبته يخسر الشيطان ما سبق واختلسه ويسترد لله ما سبق فقده.

(س) لا يمكن تصور أمر أحكم من هذا وأعدل.

(م) أوتظن العدالة السامية مغايرة لهذه العدالة؟

(س) لا أجسر أن أتوهم ذلك.

(م) فعليه لا يحق للإنسان ولا يتيسر له أبدًا أن ينال من الله ما كان قد قصد الله أن يعطيه إياه إن لم يرد له كل ما سلب منه. فكما أن فقدان كان بواسطة الإنسان كذلك الاسترداد يكون بواسطة الإنسان وهذا لا يكون أبدًا لأنه إن كان بالإنسان المغلوب قد فسدت الطبيعة البشرية واختمرت بالخطية لزم هكذا بالغالب أن يتبرر كثيرون من الخطية لإتمام قصد الله من نحو الإنسان وهذا لا يمكن الإنسان الخاطيء أن يأتيه قطعًا؛ إذ إن الخاطيء لا يستطيع أن يبرر الخاطيء.

(س) وهذا أيضًا واجب مستحيل معًا وقد يبان من ذلك كله أن رحمة الله ورجاء الإنسان المتعلق بالغبطة المخلوق لأجلها قد ذهب أدراج الرياح.

(م) على مهلك.

(س) وماذا لديك أكثر.

الفصل العشرون

في أنه ما دام الإنسان لا يرد لله ما له عليه فلا يمكن أن يكون مباركاً ولا يتبرأ لعجزه عن ذلك

(م) إذا كان الذي لا يدفع لدينه ما له عليه يدعى متمرّداً فكم بالأولى يكون أكثر تمرّداً من لا يؤدي لله ما عليه؟

(س) إن قدر على الدفع ولم يفعل فهو بالحقيقة متمرّد ولكن إذا كان عاجزاً فكيف يكون متمرّداً؟

(م) لو لم تكن فيه علة العجز لتبرأ نوعاً غير إنه إذا كان الذنب في نفس هذا العجز فكيف يخفف ذلك من ثقل الخطية أو يشفع فيه لعدم أداء الدين فلو أن سيّداً فرض على عبد له عملاً ما وأوصاه أن يتوقى الوقوع في حفرة أراه إياها وأنذره بأنه أن وقع فليس له من هناك مخرج أما العبد فلم يعبأ بوصية سيده وإنذاره بل ألقى بنفسه طوعاً في تلك الحفرة ولم يعد في طاقته أن يتمم العمل المفروض عليه. أفتحسب أن عجزه هذا عن القيام بالعمل يكون له عذراً مقبولاً؟

(س) كلا بل يزيد في خطيته لأنه يكون هو المسبب لنفسه هذا العجز وقد أذنب ذنباً مضاعفاً إذ لم يفعل ما أمر به وفعل ما نهى عنه.

(م) هكذا الإنسان قد التزم طوعاً بذلك الدين الذي لا يمكنه إيفاءه وألقى بنفسه في هذا العجز: مختاراً حتى غدا لا يستطيع أن يدفع ما كان عليه قبل فعل الخطية (يعني أن يستمر على عدم ارتكابه الخطية ولا

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الأحكام العقلية

أن يدفع ما عليه لفعله الخطية). فهو على كلتا الحالتين غير معذور؛ فإن عيّن عجزه على ما يجب الحصول عليه كالذنب في الحصول على ما لا يجب الحصول عليه. وكما أن الإنسان يؤاخذ على ضياع المقدرة التي أخذها ليتمكن بها من اجتناب الخطأ. هكذا يؤاخذ على عجزه الذي لا يستطيع معه أن يحافظ على البر ولا أن يبتعد عن الخطية ولا أن يؤدي ما عليه بسبب الخطية: لأنه فعل باختياره ما أفقده تلك المقدرة وأوقعه في هذا العجز. وسيان فقدان المقدرة الواجب الحصول عليها ووجدان العجز غير الواجب الحصول عليه. فالعجز إذًا عن الأداء لله ما له هو علة هذا التقصير وذلك لا يبرئ الإنسان من دفع ما عليه لأن نتيجة الخطية لا تبرئ الخطية التي أنتجتها.

(س) هذا مهم وضروري جدًّا.

(م) فعلى ذلك من لا يؤدي لله ما له عليه يكون أثيمًا.

(س) بدون شك. وإثمهم مضاعف لعدم الأداء ولعجزه عن الأداء.

(م) ولكن الأثيم لا يقبل في السعادة: إذ إن السعادة هي الغنى لا يرافقه فقر والاكتفاء الذي لا يكون معه عوز فلا يستحقها إلا من كان في حالة من كمال البر لا يخالطها أدنى نقص في الإثم.

(س) لا أظن خلاف ذلك.

(م) ومن لا يدفع ما عليه لله لا يمكن أن ينال هذه السعادة.

(س) هذا نتيجة ذاك.

(م) وإذا أردت أن تقول إن الله رحيم يترك لوسائله ما له عليه لمجرد كونه غير قادر على الأداء فلا تصيب لأن الترك (يعني الغفران) يقع إما على

لماذا تجسّد الكلمة؟

ما يجب على الإنسان أن يؤديه طوعًا. وهو الشيء الذي يوفي عن الخطية المحظور عليه ارتكابها. ولو كان الداعي لها حفظ الكائنات بأسرها. وإما على العقاب الذي هو انتزاع السعادة منه. بالرغم عنه كما سلف الذكر. فإن ترك الله للإنسان ما وجب عليه دفعه لعجزه عن الدفع يكون قد ترك تعالى ما لا يقدر أن يحصل عليه. وأرى من الجهل أن نعزو إلى القدير جل شأنه مثل هذه الرحمة. وإن ترك معاقبته بحرمانه السعادة كارهًا. لعدم استطاعته أن يرد ما عليه طائعًا. كان ذلك تقصيرًا في واجب القصاص بل جعل ذات ذنب الإنسان علة لسعادته لأنه لم يكن عليه أن يقع في هذا العجز وهو مادام فيه ولم يوفّ عنه بعد مذبذبًا وعلى هذا الحال تكون رحمة الله مغايرة لعدالته التي لا تقبل إيفاءً عن الخطية بدلًا من عقابها وبما إنه من المحال أن يكون الله مناقضًا لنفسه يستحيل أيضًا أن يكون رحيماً على هذا المنوال.

(س) أرى أنه يلزمنا أن نستغيث برحمة من الله غير هذه.

(م) فلنفرض أن الله يتنازل للعاجز عن أداء ما له عليه لسبب عجزه.

(س) حبذا ذلك.

(م) ولكن في حالة عدم أدائه إما إنه لا يقدر أن يدفع وإما إنه لا يريد فإن

كان يريد ما لا يستطيع يكون عاجزًا. وإن كان لا يريد فهو مجرم.

(س) هذا واضح.

(م) وسواء أكان عاجزًا أو مجرمًا لا يكون سعيدًا:

(س) وهذا أيضًا جلي.

(م) سواء أكان عاجزًا أم عاصيًا فلا يمكن أن يتبرر أو يمتدح.

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الأحكام العقلية

(س) إن كان الله يسلك مع الإنسان على مقتضى العدل فلا يجد المسكين للفرار سبيلًا ويبطل هناك فعل الرحمة.

(م) أني لا أنكر مطلقًا إنه تعالى وتبارك يخلص البشر والحيوانات أيضًا (مز ٢٦: ١) على حسب رحمته العظيمة. غير أن كلامنا هنا عن رحمة الآخرة التي ينال بها الإنسان من لدنه تعالى السعادة الباقية بعد هذه الحياة الزائلة وأحسب أني قد بينت سابقًا بالأدلة القاطعة ما به الكفاية أن تلك السعادة لا تعطى إلا للذي قد غفرت خطاياها. وهذه المغفرة لا تُنال إلا بعد قضاء الدين المرتب على الخطية على حسب قدرها فإن كان عندك ما تعترض به على هذا فأبرزه.

(س) أراني قاصرًا على أن أنقض شيئًا مما أتيت به على الإطلاق.

(م) وأراك أنا أيضًا كذلك اللهم بعد التأمل التام فيه. هذا لو كانت قضية من القضايا التي جئت بها مؤيدة بحجة لا تدفع فهي حقيقة مقبولة بلا مرأى؛ لأن الحقيقة الواضحة على وجه لا يعترض عليه هي في مأمن من كل ريب سواء أكانت معززة بالبرهان الواحد أو بالبراهين الكثيرة.

لماذا تجسّد الكلمة؟

الفصل الحادي والعشرون

في أن خلاص الإنسان بالمسيح ضروري

(س) إذا كانت الحال هكذا فكيف إذا يخلص الإنسان إن لم يؤدّ هو نفسه ما عليه وكيف لا يمكنه الخلاص إلا بالتأدية وعلى أي وجه نقول إن الله الذي هو غني في الرحمة إلى درجة يقف دونها التصور لا يقدر أن يأتي هذه الرحمة.

(م) ولهذا عليك أن تطلب ممن تتكلم بلسانهم. أولئك الذين يذهبون بأن المسيح ليس بضروري لخلاص العالم أن يفيدوك كيف يتيسر الخلاص للإنسان بدونه: فإن لم يستطيعوا جوابًا فليكمفوا عن الهزء بنا. وليتحدوا معنا نحن الذين لا نرتاب البتة في أن الخلاص بالمسيح. وإلا فلييأسوا من الخلاص بغيره بأية واسطة كانت. وإن أبوا فليأتوا إلى المسيح ويؤمنوا به معنا لينالوا من لدنه الخلاص مجانًا.

(س) أطلب إليك أن تتمم ما بدأت به وتقول لي على أية حجة تستند بأن الإنسان خلص بالمسيح.

(م) إن الخلاص بالمسيح أمرٌ مثبت لا ريب فيه: لأن كلاً يقر بلزومية الوسطة لحصول الإنسان على السعادة حتى أن غير المسيحيين أنفسهم لا ينكرون ذلك. ومقرر أيضًا أن لا خلاص للنفس أصلًا لو لم يأتِ المسيح: إذ إن الإنسان يخلص إما بالمسيح وإما بغيره وإلا فلا. وبما إنه قد ثبت أن الخلاص لا يتم بغير المسيح كان من المقتضى ضرورة أن يكون به.

(س) إن كان أحد يسلم بعدم إمكانية الخلاص إلا بواسطة المسيح.

في إثبات استحالة الخلاص بدون المسيح على موجب الأحكام العقلية

ولكنه لا يفهم علة وجوب إتمامه به فيقول لنا إن الخلاص غير ممكن لا بالمسيح ولا بغيره فماذا نجيبه.

(م) ولم الإجابة على من يحكم بالاستحالة على الأمر المحتم لكونه لا يعرف تعليله.

(س) لأنه غبي.

(م) إذا لا ينبغي أن يعبا بقوله.

(س) صدقت ولكن يجب أن نبين له أن الذي يخاله محالاً هو واقع بالحقيقة.

(م) ألم تعلم مما تقدم إنه من الضروري أن يدرك بعض البشر السعادة وإنه لا يليق بالله أن يأتي بالإنسان مدنساً إلى الغاية التي لأجلها قد صنعه بلا دنس. ولا يزكو به تعالى أيضاً أن لا يتوصل بعض البشر إلى تلك الغاية المخلوق الكل لأجلها: لئلا يكون الإنسان قد خُلِق للشقاء أو إنه جلت قدرته عجز عن أن يجيء به إليها أو ندم على العمل الذي شرع به: فبناء على كل ذلك اقتضى الحال إما إيجاد إيفاء عن الخطية خارجاً عن الإيمان المسيحي "وذا مستحيل الوجود: إذ لا يصح أبداً أن يكون الخلاص بغير الله" أو لا يكون بالمسيح كما سلف إثباته وإما الاعتقاد بما نعتقد نحن به. هذا وإن ما ثبت وجوده وتحقق بالاستدلالات الصحيحة والحجج السديدة المقنعة لا يجوز قطعاً أن يخامر العقل أدنى ارتياب فيه ولو تعسر عليه فهم كيفية تعليله جيداً.

(س) هذا صحيح.

(م) وماذا تطلب أكثر.

لماذا تجسّد الكلمة؟

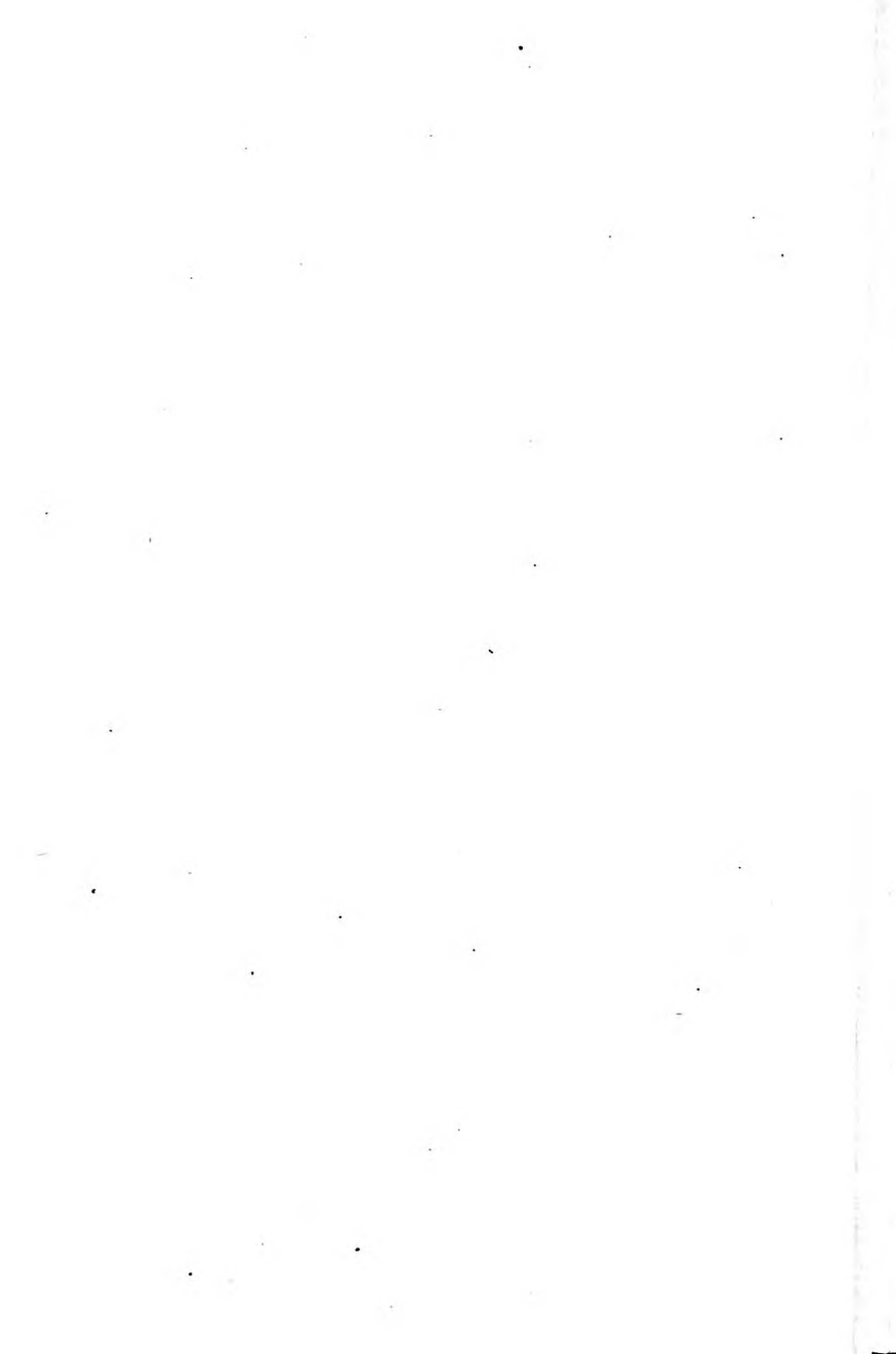
(س) لم آت إليك لتنفي مني ربًّا يداخل إيماني بل لتبدي لي البرهان على يقين معتقدي فلذا مثلما سرت بي عقليًا إلى هذه القمة التي أبصر منها الإنسان الخاطي؛ مدينًا لله بسبب الخطية. مما لا يمكنه إيفاؤه وأن لا خلاص له بدون الإيفاء. هكذا ألتمس منك أن تبلغ بي إلى تلك النقطة التي أرى بها أيضًا بالعقل لزومية الإيمان بكل ما تعلّمنا إياه المسيحية عن المسيح حسب الكتب المقدسة: إذا كنا نريد أن نخلص وما هي قيمة ذلك في جانب خلاص الإنسان. وكيف أن الله برحمته ينقذ الإنسان حين لا يغفر له الخطية ما لم يؤدّ ما عليه من أجلها. ولكن لكي تكون أقوالك أشد تأييدًا وأقوى إقناعًا فارجع بي إلى الوراثة لتشيدها على قواعد متينة وأصول راسخة.

(م) أراك لم ترث لضعفي ولا فطنت لقصوري لأنك تكلفني ما لا قبل لي به. ومع ذلك أحاول أن أتمم ما بدأت به واثقًا بالله وليس بنفسي فهو يؤازرنني بمعونته على إجابة سؤالك على قدر الاستطاعة غير أنني خشية من أن تأخذ القارئ سامة من طول الكلام أجعل توطئة صغيرة تفصل بين ما قيل وما سيقال.

2

الجزء الثاني

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة
الدائمة وأنه واجب أن يصل إليها وأنه
يستحيل ذلك بدون واسطة شخص
يكون إلهاً وإنساناً معاً



الفصل الأول

في أن الله خلق الإنسان مستقيماً ليكون مباركاً بتمتعته بالله

(م) لا شك في أن الله قد صنع الخليقة العاقلة مستقيمة لتكون مباركة بتمتعها به تعالى. وجعلها عاقلة لتمييز بين الحق والباطل والخير والشر والأفضل والأردأ. وإلا فلا فائدة من كونها عاقلة. مع أن الله وضع فيها هذه القوة العقلية لغايةٍ عنده فلا ريب إذاً في أنها قد خلقت عاقلة من أجل هذه الغاية. ولنا دليل آخر يثبت أيضاً ذلك وهو إنه قد أودعت فيها قوة التمييز لكي تمقت الشر وتجتنبه وترغب في الخير وتختاره وتسرع بالأفضل وتؤثره وإلا يكون الله قد خولها قوة التمييز هذه عبثاً دون أن يكون لها قصد معين: لأنها إن كانت تميز الأشياء دون أن تميل إلى شيء أو تعرض عنه على مقتضى تمييزها. يكون - ولا مرأى - تمييزها باطلاً. على إنه لا يصح أبداً. لا يليق أن يهب الله مثل هذه القوة العظيمة باطلاً: أي لغير غرض معين منها. فإذاً من المحقق الذي لا جدال فيه أن الخليقة إنما خلقت عاقلةً لتحب الخير الأعظم فوق كل شيء وتفضله لذاته على كل شيء. لا لسبب آخر: إذ أنها لو أحبته لغرض ما لكانت تحب ذلك الغرض وليس هو بالذات. وهذا لا يمكن للخليقة أن تأتبه إلا إذا كانت عاقلة ومستقيمة معاً لئلا تكون عاقلة عبثاً. فعليه إذا كانت قد خلقت مستقيمة لتختار الخير الأسمى وتحبه فتكون إما إنها قد خلقت قادرة أن تبلغ في زمن ما إلى موضوع حبه واختيارها أولاً. وإن كانت لم تخلق مستقيمة لتصل إلى ذلك فيكون من الباطل خلقها قادرة على أن تحب ذلك الشيء الواجب عليها حبه واختياره. وليس ما يدعو في هذه الحال إلى مداومة السعي للوصول إليه: إذ لم يعد من باعث موجب إلى ذلك. وعلى هذا ما دامت تقوم بالاستقامة بما صنعت لأجله حباً بالخير الأعظم وتوسلاً إليه دون أمل الحصول على ما تتمنى

لماذا تجسّد الكلمة؟

وتصبو من القرب منه والاستماع به تكون تعبسةً لكونها مفتقرةً بالرغم عنها إلى ما لا قدرة لها على الوصول إليه. فإذا قد خلقت الخليقة العاقلة مستقيمة لتكون سعيدة بتمتعها بالخير الأعظم الذي هو الله وتلك الخليقة ما هي إلا الإنسان إذا قد خلق الإنسان مستقيمًا ليكون مباركًا بتمتعهِ بالله.

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

الفصل الثاني

في أنه لو لم يخطئ الإنسان لما ذاق الموت أصلاً

(م) ومن ذلك يسهل إثبات أن الإنسان قد خُلق لكي لا يموت بالضرورة: لأنه كما قلنا إن وضع الموت حتمًا على الإنسان المخلوق في حالة الاستقامة والبرارة للسعادة الأبدية لغير ذنبٍ جناه مغايرٌ لعدالة الله وحكمته فينشأ عن ذلك أنه لو لم يرتكب الإنسان الخطية لما عرف الموت أبدًا.

الفصل الثالث

في أن الإنسان يقوم بالجسد الذي عاش به في هذه الحياة

(م) ومن ذلك نثبت جليًا قيامة الأموات العتيدة: لأنه إن كان الإنسان مزعمًا أن يجدد بالتمام فيقتضي أن يعاد تمامًا إلى الحالة التي كان يجب أن يكون فيها لو لم يفعل الخطية.

(س) لا يمكن خلاف ذلك.

(م) فإذا كما إنه لو لم يخطئ الإنسان لتحول إلى المجد بنفس الجسد الذي كان يلبسه. هكذا ينبغي أن يقوم عند التجديد بنفس الجسد الذي كان عاشًا فيه في هذه الحياة.

(س) ولكن كيف يقوم بنفس جسده الذي عاش فيه. مع أن ذلك الجسد عينه قد انحل بعد الموت وتفرقت عناصره وصارت أجزاء من البهائم التي يأكلها الناس؛ فصارت أجزاء من أجسادهم وأضحى جسد بعض الناس جسدًا غيره منهم أو أجزاء من أجساد كثيرين.

(م) ومن ينكر على الذي خلق من العدم عناصر هذا الجسد وركبه منها إنه يستطيع أن يجمعها بعد الانحلال من كل موضع تفرقت إليه ويعيدها كما كانت.

(س) لا ينكره إلا كل جاحد ولكن لا تذهل أنني أطلب البرهان على ما أنا معتقد به ومصدق له نائبًا عن الجاحدين.

(م) دفعت هذه الشبهة في كتاب نظام التعليم بما خلاصته (نقلًا

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

عن النشرة الأسبوعية سنة ١٨٩٥ قال بولس الرسول: "لكن يقول قائل كيف يقام الأموات وبأي جسد يأتون" وأجاب على ذلك بقوله: "الذي تزرعه لا يحيا إن لم يمت. والذي تزرعه لست تزرع الجسم الذي سوف يصير بل حبة مجردة ربما من حنطة أو أحد البواقي ولكن الله يعطيها جسماً كما أراد ولكل واحد من البذور جسمه" (١كو ١٥: ٢٦، ٢٧). على إنه لا بد من علاقة بين الجسدين كما يقول الرسول: "لأن هذا الفاسد لا بد أن يلبس عدم فساد... يُزرع في هوان ويقام في مجد" (١كو ١٥: ٤٢، ٤٣). فعلى ما ظهر من قول الرسول إن العلاقة ليست بقائمة في نفس الدقائق المادية، بل سرٌّ يشبه السرّ في خروج النبات من بذره: فالجسد المزروع عند الموت بزر الجسد المقام يوم القيامة. على أن شروط الوحدة تختلف باختلاف المواد وذلك جلّيّ من كونها في الجماد غيرها في الحي. فإنها في الجماد كما في الحجر تتوقف على دوام المادة والصورة معاً فإذا سحق الحجر وصار غباراً بقيت المادة عينها وتغيرت الصورة فزالت الوحدة. أما وحدة الحي كالبذر والنبات فتستقل عن دوام المادة على مقدارها الأصلي وصورتها فإن النبات مع كونه واحداً أبداً تزيد مادته بالنمو فتتغير صورته تغيراً بعيداً، وكذا وحدة الحي كالإنسان فإن الإنسان الشيخ هو هو عينه يوم ولادته مع زيادة حجمه وتغير صورته مع أن مادة جسده طفلاً زالت كلها ولم يبقَ في جسده شيئاً دقيقة منها ومع ذلك هو جسده. فوحدة جسد الإنسان لا تقوم بوحدة المادة والصورة فصح أن يقال جسد زيد في القيامة هو جسده يوم كان على الأرض سواء بقي قليل من دقائقه الأصلية أم كثير وسواء بقيت صورته الأولى أم لا (للمترجم).

(س) وإن قال لنا قائل إن ذلك التجديد يكون ضرورياً للمختارين من البشر فقط وليس بضروري للمردولين فماذا تجيبه.

لماذا تجسد الكلمة؟

(م) ليس أصوب جوابًا على ذلك ولا أقرب فهمًا من قولنا إنه لو سلك الإنسان مستقيمًا لكان سعيدًا إلى الأبد بكلية أي نفسًا وجسدًا. كذلك إن سلك طريق الإثم يكن شقيًا بكلية إلى الأبد.

(س) وإن تكن أوجزت فقد أفنعتني.

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

الفصل الرابع

في أنه يلزم أن الله يتمم ما بدأ به
مما يختص بالخلقة البشرية

(م) ومن ذلك نرى بسهولة إما أن الله يتمم ما بدأ به من جهة الخلقة البشرية. أو إنه يكون قد خلق باطلاً هذه الخلقة المُعدَّة لخير عظيم بهذا المقدار. ولكن لما كان من المُسلَّم به إنه تعالى لم يصنع مصنوعاً أكرم من الخلقة العاقلة للتمتع به كان بعيداً عن التصديق إنه يرضى بهلاكها بالكلية.

(س) لا يفكر عاقل غير ذلك.

(م) فإذاً من الضروري أن يتمم الله ما شرع به نحو هذه الخلقة. غير أنه يستحيل إتمام ذلك كما ذكرنا إلا بالإيفاء الكامل عن الخطبة الأمر الذي لا يتيسر للخاطئ أن يقوم به على الإطلاق.

(س) الآن فهمت جلياً إنه لا بد أن يتمم الله ما شرع به لنلا يظهر أن غايته نحو الإنسان أُحيطت بنوع لا يليق به جلّت قدرته.

الفصل السادس

في أنه لا يستطيع أحد أن يقوم بالإيفاء الذي يخلص به
الإنسان إلا إله المتأنس

(م) ولكن لا يمكن أن يكون هذا ما لم يؤدّ أحدٌ لله عن خطية الإنسان
شيئاً أعظم من جميع الأشياء ما عدا الله.

(س) نحن مجمعون على ذلك.

(م) وينبغي أيضاً أن الذي يسعه أن يؤدي لله من خاص ملكه شيئاً يفوق
كل ما هو تحت الله يكون أعظم من كل كائن سوى الله.

(س) هذا لا يُنكر.

(م) ولكن لا يوجد كائن فوق كل كائن ما سوى الله إلا الله.

(س) هذا حق.

(م) إذاً لا يقدر أحد أن يأتي هذا الإيفاء إلا الله.

(س) هذه نتيجة طبيعية.

(م) غير إنه لا يجب أن يقوم به الإنسان وإلا فلا يكون الإنسان هو القائم
بالإيفاء.

(س) هذا حق.

(م) فإذا كان على ما أتينا من المحتمل أن نتمم مقاصد الله من نحو
الإنسان وهذا لا يكون إلا بعد الإيفاء المشار إليه والإيفاء لا يقدر أن يعمل

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

إلا الله ولا يجب أن يعمل به إلا الإنسان فمن الضروري إذاً أن يكون القائم به
إلهًا وإنسانًا معًا.

(س) الحمد لله لقد اهتدينا إلى نصيب وافر مما نبحت عنه فتمم ما
بدأت به والله المسئول أن يمدنا بعونه وحوله.

الفصل السابع

في أنه يقتضي أن يكون ذات الشخص القائم بالإيفاء إلهًا
كاملاً وإنساناً كاملاً معاً

(م) والآن نبحث عن كيفية إمكان صيرورة ابن الله إنساناً؛ إذ إنه لا يمكن للطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية أن تتبادلا الذاتية بحيث يصير اللاهوت ناسوتاً والناسوت لاهوتاً. ولا يمكن أيضاً أن تتمازجا فينشأ عنهما طبيعة ثالثة ليست إلهية محضة ولا إنسانية محضة وننظر إذا كان ممكناً أن تتحول الواحدة إلى الأخرى فيصير إلهًا بلا ناسوت أو إنساناً بلا لاهوت. أو إذا كانتا تفتترنان فينتج من هاتين الطبيعتين اللتين قد تحولتا شخص ثالث (كما يولد من ازدواج الحيوانين المختلف النوع ضرب ثالث ليس له نوعية أبيه ولا نوعية أمه) لا يكون إلهيًا أو إنسانيًا؛ فعلى ذلك أن الإله الإنسان الذي نطلبه لا يمكن أن يأتي من تحول الواحدة إلى الثانية ولا يكون ثالث الاثنين من الاختلاط الفاسد؛ لأن هذا يستحيل. حتى ولو أمكن لما أفادت نتيجته شيئاً لموضوع بحثنا. وإذا قيل إن هاتين الطبيعتين الكاملتين تجتمعان على أية كيفية كانت. بحيث يكون الإنسان شيئاً والإله شيئاً آخر دون اتحاد بالذات. أي دون أن يكون الإله ذات الإنسان. فعلى هذه الحالة لا يتسنى للثنين: إذ ذاك أن يقوموا بالعمل الواجب عمله؛ إذ إن الإله لا يعمل له لعدم وجوبه عليه والإنسان لا يعمل له لعدم استطاعته عليه. فيقتضي إذاً أن الإله الإنسان المزمع أن يقوم بعمل الفداء يكون هو نفسه إلهًا كاملاً وإنساناً كاملاً؛ إذ لا يقدر أن يعمل إلا الإله الحقيقي ولا يجب أن يعمل إلا الإنسان الحقيقي. فعلى ذلك إذا كان من الواجب حفظاً لكمال كل من

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

الطبيعتين أن يوجد شخص يكون إلهًا وإنسانًا معًا. وجب أيضًا أن تتحد هاتان الطبيعتان الكاملتان في نفس هذا الشخص كاتحاد النفس العاقلة والجسد في الإنسان الواحد. وهذا لا يمكن إلا إذا كان نفس الشخص الواحد إلهًا كاملاً وإنسانًا كاملاً معًا.

(س) إنني أوافقك في كل ما تقول.

الفصل الثامن

في أنه من الضروري أن يتخذ الله الناسوت من جنس آدم من عذراء

(م) بقي علينا الآن أن نطلب من أين يتخذ الله الطبيعة البشرية وكيف يتخذها. لأنه إما أن يتخذها من آدم. أو يصنع إنساناً آخر كما صنع آدم من غير بشر. فإن كان الثاني: أي لو صنع إنساناً جديداً من غير جنس آدم. لما كان هذا منتسباً إلى الجنس البشري المتناسل من آدم. فليس عليه إذاً أن يوفي عنه لكونه ليس منه. لأنه إذا جاز أن يوفي إنسانٌ عن خطية إنسانٍ كان من الواجب أن يكون القائم بالوفاء من جنسية الخاطي. إذا لم يكن هو نفسه. وإلا لا آدم ولا نسله يقومون حقيقة بالوفاء. وبما إنه من آدم وحواء قد سرت الخطية إلى العالم فلا يقتضي أن يكفر عن خطايا العالم إلا هما بالذات أو أحد من نسلهما. ولما كانا هما غير قادرين على ذلك. وجب أن يعمل واحدٌ من ذريتهما أضف إلى ذلك. كما إنه لو لم يسقط آدم وكل نسله في الخطية لبقوا قائمين بدون معاونة خليفة أخرى. كذلك إذا كان هذا الجنس الساقط يقوم فيلزم أن يقوم وينهض بنفسه. يعني بدون عون خارجي: لأن آياً من رفعه وأعادته إلى مركزه الأصلي يبقى قائماً في الذي رفعه. ثم لما خلق الله في البدء البشرية في آدم الأول لم يشأ أن يصنع المرأة التي هي أحد الجنسين اللذين تناسل منهما الناس إلا منه أيضاً. فأظهر بذلك جلياً إنه من آدم وحده يقصد أن يحقق غايته من الخليفة البشرية. لذلك إن كان الجنس الآدمي ينهض بإنسان من غير ذات جسمه فلا يعاد إلى المقام الذي كان مزموماً أن يناله لولا خطية آدم فيحبط إذ ذاك قصد الله على أن

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

كلا الأمرين غير لائقين. إذًا من الواجب أن ذاك الإنسان الذي يتجدد به بنو آدم يتخذ الطبيعة الآدمية.

(س) إذا تتبعنا مجرى الحكم العقلي كما اتفقنا فلا أرى بدءًا من أن يكون ذلك.

(م) فلننظر الآن فيما إذا كان من الواجب أن يتخذ الله الطبيعة البشرية من أب وأم نظير جميع الناس. أو يتخذها من رجل بدون امرأة. أو من امرأة من غير رجل؛ لأنه أية حالة أخذها من هذه الحالات الثلاث يكون بها من نسل آدم وحواء. اللذين منهما كل البشر من الجنسين وليس حالة من هذه الثلاث أسهل على الله من الآخرين ليفضلها ويتخذ منها ناسوته.

(س) إنك تسلك السبيل القويم.

(م) ولكن لا حاجة إلى جهد كبير لبيان أن ولادة ذاك الإنسان الفادي من رجل وحده أو من امرأة وحدها أظهر وأزكى من ولادته من كليهما باقتران الجنسين كما هو شأن بني البشر كافة.

(س) هذا معلوم.

(م) إذًا من الواجب أن يتخذه من رجل وحده أو من امرأة وحدها.

(س) لا يمكن أن يكون من غيرهما.

(م) إن الله قادر أن يصنع الإنسان على أربعة أنواع من رجل وامرأة كما هو الشأن الجاري أو من غير رجل ولا امرأة كما صنع آدم. أو من رجل بلا امرأة كما صنع حواء. أو من امرأة من غير رجل؛ الأمر الذي لم يكن قد صنعه إلى ذلك الحين. فكي يتحقق أن هذا الوجه الأخير هو تحت سلطانه تعالى. وأنه جدير بهذا العمل. لآق أن يتخذ هذا الإنسان الذي هو موضوع بحثنا من امرأة

لماذا تجسّد الكلمة؟

وحدها. وأما من حيث مناسبة مجيئه من عذراء، أو من ثيب فليس من لزوم للجدال فيه؛ إذ إنه يتيسر لنا أن نثبت إثباتًا باتًا لا ريب فيه إنه يقتضي ألا يولد الإله المتأنس إلا من عذراء.

(س) أرى خطابك يصادف قبولًا في قلبي.

(م) أليس ما جننا به من البرهان راسخًا ومكيّنًا. أم هو كالغيوم كما قلت لا يلبث أن يضمحل عند هبوب رياح اعتراضات غير المؤمنين.

(س) ليس أرسخ منه ولا أرسى.

(م) فصور إذاً على صفائح من الحقائق الثابتة وليس على صفحات من الأباطيل الزاهقة. وقل إنه كما أن خطية الإنسان وعلّة دينونتنا قد نشأتنا من امرأة. هكذا وجب أن دواء الخطية وسبب خلاصنا يولد من امرأة أيضًا. وكذلك لما كانت الأنثى التي صنعها الله من رجل بلا امرأة مأخوذة من رجل بكر (عزب) قد لاقَ أن يكون الإنسان المصنوع من امرأة بلا رجل مولودًا من امرأة بكر. وحسبك هذا دليلًا على وجوب مجيء ابن الله من عذراء.

(س) إنه لبيان بديع محكم جدًّا.

الفصل التاسع

**في أن هذا الإنسان لا يموت بحكم الموت الاضطراري
وهل يمكنه أن يخطئ أو لا يمكنه.
ولماذا وجب أن يحمد على بره إن كان لا يقدر أن يفعل
الخطية**

(م) ليس لنا حاجة إلى أن نبحث فيما إذا كان حكم الموت يجري على هذا الإنسان بالاضطرار مثل سائر الناس المقضي عليهم بالموت؛ لأنه إذا كان آدم بارتكابه الخطية قُضي عليه بالموت. وجب بالأحق ألا يزوق الموت ذاك الذي يستحيل وجود الخطية فيه لكونه إلهًا.

(س) قف بي قليلًا عند هذه القضية لأنني أرى سواء أكان ممكنًا له أن يخطئ، أو غير ممكن فينشأ على كلتا الحالتين مسألة ذات بال: إذ يخيّل إليّ أن القول بعدم مقدرته على فعل الخطية صعب التصديق. (فأود هنا أن أتكلم شيئًا ليس بصفة كونه غير موجود كما نحن مُسلّمون حتى الآن بل كأننا نعرفه ونقر بأعماله). من ذا الذي يا ترى ينكر إنه كان قادرًا أن يفعل أمورًا كثيرة مما نسميها بعرفنا خطايا. فكيف نقول مثلًا إنه كان غير قادر على أن ينطق بالكذب الذي هو خطية بلا نزاع مع إنه هو نفسه قال في خطابه لليهود عن الأب "إن قلت لست أعرفه أكون مثلكم كاذبًا" (يو ٨: ٥٥) أيوجد من لا يقر بأنه كان ممكنًا له أن يتفوه بهاتين اللفظتين "لست أعرفه" أو بسواهما من الألفاظ الدالة على مثل هذا المعنى فيكون غير صادق. لو فعل ذلك الأمر الذي به يُعد خاطئًا فإذًا إن كان قادرًا أن يقول ذلك كان قادرًا أن يخطئ.

لماذا تجسّد الكلمة؟

(م) كان قادرًا أن يقول ذلك وغير قادر أن يخطئ.

(س) أوضح ما تقول.

(م) ألا تعلم أن القدرة تابعة للإرادة؛ لأنه حينما أقول مثلًا إنني قادر على أن أتكلّم أو أمشي يكون المفروض فيه أنني أريد. وحيث إن حرية الإرادة غير مُقدّرة، فهناك لا تكون قدرة بل اضطرار. فعلى ذلك يمكننا القول عن المسيح إنه كان قادرًا على أن يكذب إذا كان مفروضًا أنه أراد ولكن لما كان لا يقدر أن يكذب رغمًا عن إرادته وليس يقادر أن يريد الكذب فأمكن أن يقال مُحال أن يكذب ولذا نقول إنه كان قادرًا على الكذب وغير قادر أيضًا.

(س) فلنعد الآن إلى سياق كلامنا عنه بصرف النظر عن وجوده كما ابتدأنا. أقول إن كان لا يستطيع أن يفعل الخطية لكونه على قولك لا يستطيع أن يريدّها فلا يكون بارًّا باختياره المطلق وإرادته الحرة بل حافظًا لبره بالضرورة وأي فضل له في ذلك أو كيف يستحق الحمد على بره إن كان بارًّا بالاضطرار.

(م) هل الملائكة الذين لا يقدرّون أن يخطئوا لهم فضل على ذلك.

(س) كلا بل الفضل لله الذي خلقهم بهذه العصمة.

(م) وما قولك في الله الذي لا يقدر أن يخطئ والذي لم يأخذ عصمته من أحد هل يستوجب الحمد على بره؟

(س) أجب عني في ذلك لأنني إن قلت "لا". أكون كاذبًا عن علم يقين. وإن قلت "نعم" أخشى أن أناقض قولي.

(م) إن الله الذي له من ذاته كل ما له من الكمالات يستوجب الحمد الغير المتناهي على كمالاته غير المتناهية لأنه حافظ لها. ليس بالضرورة

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

بل من عدم تغييره الخاص الأبدي كما سلف القول وهكذا ذلك الإنسان أيضًا الذي هو في الحين ذاته إله ليس بآرًا بالاضطرار بل بالاختيار؛ لأن ما له من الكمالات من ذاته لذلك يستوجب الحمد. ولئن تكن الطبيعة البشرية تستمد من الإلهية ما تستمد فلا يكون له ذلك إلا من نفسه لأن الطبيعتين هما أقنوم واحد.

(س) لقد أرضيتني فأرى الآن واضحًا إنه جدير بالحمد على بره الذاتي وإن يكن لا يستطيع أن يخطئ؛ ولكن يعن لي سؤال. وهو لما كان الله قادرًا على أن يوجد إنسان مثل هذا، فلماذا لم يخلق الملائكة والإنسانيين الأولين على هذه الحال بحيث لا يمكنهم الخطأ بل يستحقون الحمد لسبب برهم الذاتي.

(م) أندري ما تقول.

(س) أحسبني أدري ولهذا سألتك.

(م) لأنه يستحيل أن يكون كل فرد منهم إلهًا كما قلنا عن شأن ذلك الإنسان. وإن سألت لماذا لم يعمل الله ذلك في ثلاثة أشخاص على عدد الثالوث الأقدس. بل قام به أقنوم واحد فالجواب أن الحكم العقلي لا يستدعي أن يكون ذلك قطعًا بل بأباه كليًا والله لا يأتي أمرًا لا موجب له.

(س) إنني أخجل لسؤال مثل هذا السؤال فقل ما شئت أن تقول.

(م) فلنقل إنه لم يكن واجبًا أن يجري عليه حكم الموت لأنه لم يخطئ.

(س) وأنا أقول كذلك.

الفصل العاشر

في أنه يموت من تلقاء إرادته الحرة وأن الموت ليس من خاصية الطبيعة الطاهرة

(م) والآن بقي لنا أن نبحث فيما إذا كان ممكناً أن يموت بحسب الطبيعة البشرية لأنه بحسب الطبيعة الإلهية منزّه أبداً عن الفساد.
(س) لا محل في ذلك للارتباك إن كان مزمماً أن يصير إنساناً حقاً وكل إنسان مائت.

(م) لا أحسب أن الموت يختص بطبيعة الإنسان الطاهرة بل الفاسدة؛ لأنه لو لم يخطئ الإنسان أصلاً وكان خلوده مقرراً بلا رد، لما كان مع ذلك إلا إنساناً حقاً. وكذا حينما يقوم الأموات في عدم فساد فلا يكونون إلا بشرًا حقيقيين أيضًا؛ إذا لا الفساد يختص بجوهر الطبيعة الإنسانية ولا عدم الفساد. لأن الإنسان لا يبقيه هذا الحد ولا ذاك يلاشيه. بل الواحد يؤول إلى سعادته. والآخر إلى شقاوته. ولكن بما إنه لم يوجد قط إنسان غير مائت ذهب الفلاسفة كأرسطوطاليس وأمثاله الذين لم يعتقدوا بإمكان الخلود للإنسان إلى أن الموت نهاية كل حي فعليه لا يكفي كون ذلك الإنسان إنساناً حقاً لإثبات وجوب كونه مائتاً.

(س) هات إن كان عندك بيّنة أخرى تثبت أنه كان يمكنه أن يموت لأنّي لا أعرف سبباً آخر.

(م) إن كان هو الله فيكون بلا مرء قادرًا على كل شيء.

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

(س) هذا صحيح.

(م) إذاً إن شاء يقدر أن يضع نفسه ويقدر أن يأخذها أيضاً.

(س) وإن لم يقدر أن يفعل ذلك فلا أدري كيف يكون قادراً على كل شيء.

(م) إن أراد إذاً يمكنه أن لا يموت ويمكنه أن يموت. ولكن سواء وضع نفسه بدون تداخل آخر أو إن تسبب أحد بوضعها له بسماع منه فلا يمس ذلك من قدرته شيئاً.

(س) لا شك في ذلك.

(م) فإذاً إن شاء يقدر أن يقتل وإن لم يشأ لا يقدر.

(س) العقل يقودنا إلى هذا بلا عوج.

(م) والعقل يعلمنا أنه ينبغي أن يكون له شيء أعظم من كل ما هو تحت الله ليعطيه الله بإرادته الحرة وليس بصفة أداء دين.

(س) هكذا ينبغي.

(م) وهذا الشيء لا يمكن أن يوجد حته ولا خارجاً عنه.

(س) حق.

(م) إذاً يجب أن يكون فيه.

(س) بالطبع.

(م) فإذا يعطي نفسه أو شيئاً مما له.

(س) لا أفهم غير ذلك.

(م) والآن علينا أن ننظر في كيفية هذا العطاء؛ لأنه لا يمكنه أن يقدم

لماذا تجسد الكلمة؟

نفسه لله ولا شيئاً ما له من قبل إذ كل شيء ملك الله.

(س) هكذا الحال.

(م) ويجب أن يكون معلوماً أن إعطاء نفسه أو ما له إكراماً لله لا يكون قضاء الدين عليه.

(س) هذا ما لزم عن القول السابق.

(م) وإذا قلنا إنه مسلمٌ نفسه لله بكونه يخضع لإرادته تعالى بإقامته على حفظ البر فذلك لا يُسمّى عطاء؛ لأن الله يطلبه منه كدين إذ كل عاقل ملتزم لله بمثل هذه الطاعة.

(س) هذا لا يُنكر.

(م) فإذا يلزمه بطريقة أخرى أن يعطي نفسه لله أو شيئاً ما له.

(س) العقل يسوقنا إلى ذلك.

(م) فلننظر إن كان يا ترى يمكنه أن يعطي حياته أو يضع نفسه أو يسلم ذاته للموت لأجل كرامة الله؛ لأن الله لا يقتضي ذلك منه كدين واجب الأداء إذ كما ثبت لا يتحتّم عليه الموت لعدم وجود الإثم فيه.

(س) لا أفهم خلاف هذا.

(م) فلننظر إن كان ذلك يجوز عقلاً.

(س) لك الكلام وعليّ الإصغاء.

(م) إذا ارتكب أحد الخطيئة إرضاءً لشهواته أفليس من الحق أن يكفر عنها بالعذاب؟ وإذا غلبه إبليس بأسهل سهولة وأغراه ليهين الله بفعل الخطيئة. أفليس من العدل أن يكفر عن الخطيئة بغلبته إبليس وهو يقاسي

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

أشد صعوبة إكرامًا لله؟ والذي اختلس ذاته بكليته من الله بارتكابه الإثم ألا يكون عليه أن يعطي نفسه بجملة كفارة لله.

(س) هذا عين الصواب.

(م) ولكن الإنسان لا يقدر أن يحتمل بإرادته الحرة وهو مختار أمرًا أشد وأصعب من الموت إكرامًا لله. وهو لا يستطيع البتة أن يقدم نفسه لله ألا بتسليمها للموت تمجيّدًا لله.

(س) كل هذه الاستدلالات حقيقية.

(م) فإذًا يقتضي أن يكون ذاك الذي يريد أن يكفر عن خطية الإنسان قادرًا على أن يموت إن شاء.

(س) إنني أرى جليًا أن ذاك الرجل الذي نطلبه يشترط فيه ألا يموت عن اضطرار لكونه قادرًا على كل شيء ولا بالحكم القضائي لأنه لم يخطئ البتة ومع ذلك ينبغي أن يكون قادرًا على أن يموت بمجرد إرادته الحرة لاقتضاء الحال إليه.

(م) وتوجد أسباب أخرى كثيرة تستدعي أن يصير في شبه الناس سائرًا سيرتهم. ولكن بلا خطية وهذه الأدلة ترى حسبيًا في مظاهر حياته وأعماله بأسهل وأجلى من رؤيتها بالبيان العقلي المجرد: إذ أني للبيان البشري أن يبين بأية حكمة وضرورة قد ترتب أن الذي كان مزعمًا أن يفدي البشر من الموت والهلاك ويسير بهم في سبيل الحياة والسعادة الأبدية أن يعايشهم ويخالطهم ويعلمهم شفاهًا في سيره معهم يكشف يقتضي أن يسلكوا في هذه الحياة مقدمًا نفسه لهم مثلًا وكيف يتيسر أن يعطي نفسه قدوة للأنام الضعفاء لكيلا يحيدوا عن البر من أجل ضرر حل بهم أو هوان مسهم إن كانوا يجهلون أنه هو نفسه قد عرف ذلك وشعر به.

لماذا تجسّد الكلمة؟

الفصل الحادي عشر

في أنه ولو شاركنا في الضعفات لا يكون تعيساً

(س) قد تبين واضحاً من كل ذلك إنه ينبغي أن يكون قابلاً للموت ومشاركاً لنا في الضعفات ولكن بما أن من هذه يؤسنا وشقاءنا يكون هو شقياً لسببها أيضاً.

(م) كلا لأنه إن كانت الراحة الحاصل عليها الإنسان رغماً عن إرادته لا تؤول إلى سعادته كذلك ليس من التعاسة ولا الشقاء قبول مشقات لم يجبر عليها بل قبلها بمطلق إرادته لحكمة اقتضته.

(س) هذا مقبول.

الفصل الثاني عشر

في أنه لا يشاركنا في الجهل مع مشاركته لنا في سائر الضعفات الأخرى

(س) لكن قل لي بما إنه كان من الواجب أن يشابه الناس هل بداخله
الجهل كبقية ضعفاتنا؟

(م) كيف تشك في أن الله بكل شيء عليم؟

(س) لأنه ولئن يكن من جهة الطبيعة الإلهية خالداً فهو من جهة
البشرية قابلاً للموت. فعلى ما لا يكن ذلك الإنسان كالناس جاهلاً كما يكون
مائنًا.

(م) إن اخاد الألوهية مع الناسوت في أقنوم واحد لا يصير إلا بالحكمة
السامية فلا يتخذ من البشرية ما هو مضر جداً للعمل الذي على ذاك
الإنسان أن يعمل. فالجهل لا ينفعه شيئاً بل يضر به من جهات كثيرة
لأنه كيف يتيسر له أن يقوم بما عليه من الأعمال العظيمة والعديدة بدون
الحكمة الكاملة وكيف يصدق الناس إن علموا أن به جهلاً وهب أنهم لا
يعلمون أنه جاهل فماذا يثمر ذلك الجهل من الفائدة وفضلاً عن ذلك لا يحب
شيء إلا متى عرف. فإذا كان الشيء الذي لا يحبه غير مفيد كان أيضاً الذي
يجهله غير حسن. ولكن ما من أحد يعرف الخير جيداً إلا الذي يعرف أن يميزه
من الشر ولا يعرف هذا التمييز من يجهل الشر. وبضدها تتميز الأشياء.
فعلى ذلك يلزم أن الذي نحن في صده يعرف تماماً كل خير كما لا يجهل كل
شر: لأن له كل علم ومعرفة ولو كان لم يظهر ذلك منه جلياً في سيرته

لماذا تجسّد الكلمة؟

الفصل الحادي عشر

في أنه ولو شاركنا في الضعفات لا يكون تعيساً

(س) قد تبين واضحاً من كل ذلك إنه ينبغي أن يكون قابلاً للموت ومشاركاً لنا في الضعفات ولكن بما أن من هذه بؤسنا وشقاءنا يكون هو شقيّاً لسببها أيضاً.

(م) كلا لأنه إن كانت الراحة الحاصل عليها الإنسان رغماً عن إرادته لا تؤوّل إلى سعادته كذلك ليس من التعاسة ولا الشقاء قبول مشقات لم يجبر عليها بل قبلها بمطلق إرادته لحكمة اقتضته.

(س) هذا مقبول.

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

الفصل الثاني عشر

في أنه لا يشاركنا في الجهل مع مشاركته لنا في سائر
الضعفات الأخرى

(س) لكن قل لي بما إنه كان من الواجب أن يشابه الناس هل بداخله
الجهل كبقية ضعفاتنا؟

(م) كيف تشك في أن الله بكل شيء عليم؟

(س) لأنه ولئن يكن من جهة الطبيعة الإلهية خالداً فهو من جهة
البشرية قابلٌ للموت. فعلى ما لا يكن ذلك الإنسان كالناس جاهلاً كما يكون
ماتناً.

(م) إن اتحاد الألوهية مع الناسوت في أقنوم واحد لا يصير إلا بالحكمة
السامية فلا يتخذ من البشرية ما هو مضر جداً للعمل الذي على ذاك
الإنسان أن يعمل. فالجهل لا ينفعه شيئاً بل يضر به من جهات كثيرة
لأنه كيف يتيسر له أن يقوم بما عليه من الأعمال العظيمة والعديدة بدون
الحكمة الكاملة وكيف يصدق الناس إن علموا أن به جهلاً وهب أنهم لا
يعلمون أنه جاهل فماذا يثمر ذلك الجهل من الفائدة وفضلاً عن ذلك لا يحب
شيء إلا متى عرف. فإذا كان الشيء الذي لا يحبه غير مفيد كان أيضاً الذي
يجهله غير حسن. ولكن ما من أحد يعرف الخير جيداً إلا الذي يعرف أن يميزه
من الشر ولا يعرف هذا التمييز من يجهل الشر. وبضدها تتميز الأشياء.
فعلى ذلك يلزم أن الذي نحن في صدده يعرف تماماً كل خير كما لا يجهل كل
شر؛ لأن له كل علم ومعرفة ولو كان لم يظهر ذلك منه جلياً في سيرته

لماذا تجسّد الكلمة؟

بين البشر.

(س) يبان لي إنه يكون كذلك في سن الإدراك. أما في حدائته فلم يكن في حاجة إلى الحكمة لعدم حلول الوقت المناسب لظهورها فيه.

(م) أما قلنا إن هذا التجسد لا يصير إلا بالحكمة: فالله بحكمة يلبس جسم البشرية لكي يستخدمه بحكمة أيضًا بحيث يكون نافعًا من كل وجوهه. ولكنه لا يستطيع أن يلبس بحكمة شيئًا من الجهل لأنه لا نفع في الجهل مطلقًا بل هو مضر في كل حال إلا إذا كان محبًا لرغبة خبيثة (الأمر الذي لا يمكن تصور وجوده فيه) هذا ولو أن الجهل لا يضر في بعض الظروف بشيء فهو ضار من حيث إنه يحول دون معرفة الصلاح وصلاح المعرفة. وناهيك ما به من ضرر. وأخيرًا لأحل لك موجزًا ما ترغب في الوقوف عليه أقول إنه وهو إنسان يكون مملوءًا من ملء الله كما من نفسه وعليه لا يخلو أبدًا من قوة الله وسلطته وحكمته.

(س) لم يخامرني قط أدنى ريب في أن كل ذلك في المسيح ولكنني سألت بغية الوقوف على السبب لأننا كثيرًا ما نكون على يقين من وجود أمر مع أننا لا نعرف أن تثبته عقليًا.

الفصل الثالث عشر

في كيف أن موته يفوق خطايا الجنس البشري مع عظمتها وكثرتها

(س) والآن أطلب إليك أن تعلمني كيف أن موته يفوق خطايا العالم كلها مع عظمتها وكثرتها على أنك أثبت بالبينة أن خطية واحدة مما نخالفها من أخف الصغائر هي جسيمة بهذا المقدار حتى إنه لو وجدت عوالم لا تخصي غاصة بالخلائق مثل عالمنا هذا وغير ممكن أن تحفظ من الفناء إلا باقتراف أحدهم خطية صغيرة جدًا فليس من الواجب أن يأتي ذلك أصلًا.^١

(م) لو كان ذاك الإنسان حاضرًا وأنت تعلم من هو وقيل لك إن لم تقتل هذا فكل حي ما خلا الله بهلك أفتفعل ذلك حفظًا لحياة تلك الخلائق.

(س) لا أفعل ذلك ولو أروني عددًا من العوالم لا يُعد.

(م) وإن قيل لك إن لم تقتله فتبعة خطايا العالم بأسره تلتحق بك فما جوابك.

(س) أجيب أنني أفضل حمل كل آثام العالم الحاضر والماضي والآتي أيضًا على أن أرتكب تلك الخطية بل أرى عليّ أن أوثر ذلك على أدنى أذى يلزم به بسببي فضلًا عن قتله.

(م) بالصواب حكمت ولكن قل لي على ما يتولى قلبك الخوف من فعلك أدنى أذى لذاك الشخص أكثر من كل الذنوب التي يمكن تصورها. في حين أن

لماذا تجسّد الكلمة؟

كل الذنوب المقترفة هي ضده.

(س) لأن الاساءة إلى ذات شخصه أعظم هوّلاً وجسامة بما لا يقاس من كل ذنب يمكن تصوّره خارجاً عن شخصه.

(م) وما قولك في أن المرء يفضل غالباً احتمال ضرر يلحق ذاته على إصابة عظيمة في أمواله ومقتنياته.

(س) إن الله يتعالى عن مثل هذا الاحتمال: لأن كل الأشياء خاضعة لحكمه كما أجبت قبلاً على سؤال مني.

(م) نعم الجواب. فلننظر لماذا لا يمكن أن تعادل جميع الخطايا التي لا تمس شخص الله على جسامتها ووفرته أذية واحدة لحياة ذلك الإنسان الجسدية.

(س) هذا في غاية الوضوح.

(م) أیظهر عظم قيمة حياته وجسامة شر الفتك به.

(س) إن كان وجوده خيراً بمقدار ما يكون أعدامه شراً فهذا الخير أعظم كثيراً جداً من شر كل الخطايا التي يفوقها قتله هوّلاً وفضاعة بما لا يقاس.

(م) الحق نقول ولكن اعتبر أن الخطايا مكروهة على قدر ما هي سمجة. وأن حياته محبوبة على قدر ما هي صالحة فينتج من ذلك أن قيمة حياته أعظم من سماجة الخطايا.

(س) هذا ما أفهمه.

(م) أفلا تحسب أن هذا الخير الفائق والمحجوب بهذا المقدار كافٍ للتكفير عن خطايا العالم قاطبة.

(س) بلى والكفاية كافية لما هو أكثر كثيراً.

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

(م) أنك ترى الآن واضحًا كيف أن تلك الحياة تعلو وتكفر عن جميع الخطايا إذا أعطيت كفارة عنها.

(س) في غاية الوضوح.

(م) فإذا كان بذل الحياة هو بمثابة قبول الموت وبذل هذه الحياة يساوي ما هو أعظم وأكثر من خطايا الأنعام أجمعين فيكون قبول الموت كذلك بلا ارتياب.

الفصل الرابع عشر

في كيف أن ذلك الموت يكفر عن ذنوب قاتليه أيضًا

(س) نحن متفقان على أن هذا يصح من جهة جميع الخطايا التي لا تمس الذات الربانية ولكن يخطر لي أمر أراه يستلزم البحث وهو إن كان قتله شنيعًا بمقدار ما كانت حياته صالحة فكيف يمكن أن موته يعلو خطايا الذين قتلوه ويمحوها أو إن كان يمحو خطايا البعض منهم فكيف لا يكون ذلك لسائرهم أيضًا لأننا نعتقد أن كثيرين من هؤلاء قد فازوا بالخلاص وآخرين لا يحصى عددهم قد هلكوا.

(م) إن الرسول قد حل هذه المسألة بقوله: "أنهم لو عرفوا لما صلبوا رب المجد" (١كو ٢: ٨) لأنه يوجد بون عظيم بين خطية مُرْتَكِبَةٍ عن علم وخطية مُرْتَكِبَةٍ عن جهل. حتى أن الشر الذي لا يُسْتَطَاع فعله لهوله وجسامته إن ارتُكِبَ عن علم هو عَرَضِيّ إن اقْتَرِفَ عن جهل. إذ ما من أحد يستطيع قتل ابن الله بإرادته وهو عالم به. فلذلك لم يتهور أولئك الذين قتلوه في هوة هذه الخطية العديمة القرار التي لا تعادلها خطية لأننا لا نعتبر عظمة صلاحية تلك الحياة وسمو شأنها قياسًا لعظمة الخطية المفعولة عن جهل بل عن علم وهذه لا يفعلها أحد ولا يقدر أن يفعلها.

(س) لقد برهنت جيدًا على أن قتله المسيح كانوا يستطيعون أن يحصلوا على مغفرة خطاياهم.

(م) وماذا تطلب الآن أكثر. ها قد رأيت بالحكم العقلي وجوب بلوغ بعض من الجنس البشري إلى ما خلق لأجله وأن هذا لا يمكن أن يتم إلا بعد

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

الغفران الذي لا يتم إلا بواسطة إنسان يكون هو نفسه إلهًا أيضًا. والذي بموته يصلح الخطاة مع الله. وقد وجدنا أن المسيح الذي نعترف بكونه إلهًا وإنسانًا قد مات لأجلنا متيقنين أن جميع ما قاله حق لأن الله جلت صفاته منزّه عن الكذب ولا محل للريب في أن كل ما صنع قد صنع بحكمة ولئن تكون تلك الأسباب خافية عن أفهامنا.

(س) إن كل ما سردت صحيح وأنا لا أشك أبدًا في أن كل قول وعمل منه كان على أكمل سداد وأحكمه ولكن قصدت في سؤالتي أن تشرح لي كيف يكون عندنا أمر واجب الفعل وممكنه مع أنه يظهر للبعض غير واجب وغير ممكن وما حجتنا عليه. ذلك ليس لتثبتي في العقيدة حاشا أن أكون متقلقًا بل يسرني إثبات حقيقة ذلك للأفهام.

الفصل الخامس عشر

في كيف أن الله اتخذ من الجبلّة الخاطئة ناسوتًا بلا خطية وفي خلاص آدم وحواء

(س) والآن أسألك كما عللت هذه القضايا التي تقدم الكلام عنها أن تعلل لي أمورًا أخرى أجدها تستلقت النظر وتستدعي البحث وتكشف النقاب عن أسبابها وهي كيف يتخذ الله ناسوتًا بلا خطية من الجبلّة الخاطئة أي من الجنس البشري المندس بحمأة الخطية كما يتخذ الفطير من الخمير؟ لأنه إذا سلمنا بأن الجبل بذلك الإنسان كان طاهرًا وخلوًا من خطية التمتع الجسداني فالعذراء نفسها التي أخذ ناسوته منها قد صورت بالإثم وبالخطية حبلت بها أمها وفي الخطية الأصلية ولدت إذ هي أيضًا قد أخطأت في آدم الذي أخطأ فيه الكل (رو ٥ : ١٢) .

(م) بعدما تقرر أن ذلك الإنسان هو الله وإنه مصلح الخطاة فلا ريب إذا إنه بلا خطية بكنيته. وهذا لا يتم ما لم يكن قد أخذ بلا خطية من الجبلّة الخاطئة ولكن إذا كنا لا نستطيع أن نفقه كيف صنعت الحكمة الإلهية ذلك فلا ينبغي أن نقف عنده متعجبين بل نقر بملء الوفاق أن هناك سرًا من جملة الأسرار العديدة التي لا نلم بها كشفًا ولا نعرف لها وجهًا وبالحقيقة أن الله قد جدد الطبيعة البشرية بنوع أعجب مما كونها. نعم إن كلنا الحالتين هما سواء على الله وليست إحدهما أسهل لديه من الأخرى غير أن الإنسان لم يخطئ قبلما وجد حتى يقضى عليه بعدم الوجود. بل بعدما خلّق استوجب بارتكابه الخطية أن يفقد ذات وجوده والغاية التي كان قد وُجد لأجلها. بيد

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

أنه لم يفقد وجوده الذاتي فبقي بالضرورة موضوعاً للقصاص من قبل الله أو للرحمة ولو انحل وتلاشى وانعدم لما كان هناك موضوع لوقوع أحد الأمرين. فنرى بهذا أن الله قد جده بصفة أعجب وأرفع مما خلقه وزد عليه إنه صنع هذا التجديد لخطيئ على عكس ما كان يستحق إذ هو لم يخلقه أولاً خاطئاً ولا ضد استحقاقه. فما أعظم اجتماع الله والإنسان على هذا المنوال في شخص واحد هو إنسان وإله مع حفظ كمال طبيعة كل منهما فمن يجسر والحالة هذه أن يتوهم أن المدارك البشرية قادرة على أن تفهم بأية حكمة وقوة قد تم ذلك العمل العجيب الذي لا يفحص حكمه ولا يستقصى طريقه.

(س) إني لمَهِرٌّ أن ليس من يستطيع في هذه الحياة أن يكشف هذا السر تمام الكشف ولذلك لا أكلفك ما لا يُستطاع بل أود أن تبدي على قدر طاقتك ما يترأى لك فإنك إذا نظرت في المسألة ولو قليلاً وأظهرت شيئاً مما استتر فيها من الأسباب المهمة أقنعتني أكثر من سكوتك إذ أن صمتك يدل على أنك لا ترى فيها من التعليل شيئاً.

(م) وإني لستُ بقادرًا على أن أتملص من إلحاحك إلا بمطاوعتك: فإن تيسر أن آتي بشيء مما تطلب فالشكر لله وإلا فالذي تقدم من القضايا المثبوتة يتكفل بإقناع المتدبر المنصف وأنا إذا سلمنا بوجوب صيرورة الله إنساناً فيلزم أن نسلم بلا تردد أن الحكمة والافتدال لا يعوزانه ليكون خاليًا من الخطية.

(س) لا خلاف في هذا.

(م) وعليه كان ينبغي أن الفداء الذي أتاه المسيح لا يشمل نفعه للذين عاشوا في ذلك الزمان فقط. بل يتخطاهم إلى سواهم أيضًا ولنضرب لذلك مثالاً: رب عائلة تركه جميع أولاده وأذنبوا إليه ما عدا واحدًا منهم حيث لم

يكن متيسرًا لأحد سواه أن يجد مهرًا من حكم القصاص. وكان ولده هذا الأمين الصادق له منزلة عظيمة عند ذلك الأب وهو محب كثيرًا لأولئك الأولاد المجرمين فأراد على ما له من الاستطاعة أن يصلح كل الذين يثقون بمشورته مع الأب بإتيانه خدمة مرضية جدًا لديه واجب عملها في يوم معين بمقتضى إرادة الأب. ولما كان غير ممكن لجميع المفتقرين إلى المصالحة أن يجتمعوا في ذلك اليوم ارتضى الأب من أجل خطورة تلك الخدمة أن كل من اعترف قبل ذلك اليوم أو بعده بأنه يريد أن يسأل العفو المرتب على تلك الخدمة المعمولة في ذلك اليوم. ويقبل المعاهدة المبرمة. ينال الصفح عن كل ذنوبه. وإذا اتفق أن بعد ذلك العفو تعدى أيضًا أحد الأولاد وجاء تائبًا وسأل العفو ثانية. فلا يرد خائبًا بل يحصل عليه من أجل المعاهدة المذكورة ولكن لا أحد يدخل داره بها لم يعف ويصفح عن ذنوبه. وعلى هذا التشبيه. لما كان متعذرًا على أولئك الذين يريدون الخلاص أن يحضروا جميعًا حين أكمل المسيح ذلك الفداء. كانت قوة موته فعالة بهذا المقدار حتى عمّت الغائبين مكانًا وزمانًا ويسهل الاستدلال على ذلك (أي على عدم اقتصار نفع الفداء على الذين كانوا في زمن موته) بأنه لا يصح القول بوجود فترة من الزمان منذ خلق الإنسان كان فيها هذا العالم على ما يحتويه من الموجودات المخلوقة لخدمة الإنسان خاليًا من أحد من الجنس البشري. من يحسب أهلًا للاشتراك فيما خُلق لأجله الإنسان؛ إذ يبان غير لائق بأن يسمح الله ولو هنيهة بوجود الجنس البشري مع الأشياء الكائنة لخدمته باطلاً؛ لأنه إن لم يُظهر أنه موجود لأجل الغاية التي قد خُلق لأجلها على الخصوص. يكون وجوده باطلاً.

(س) قد أظهرت بالدليل الراهن الذي لا يُدفع عدم وجود حين من الأحيان منذ خلق الإنسان قد خلا من يشترك في هذه المصالحة. التي لولاها لكان الكائن الإنساني مصنوعًا عبثًا. ويمكن لنا أن نقول إن هذا لم يكن لائقًا

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

فقط. بل واجبًا أيضًا: لأنه أقرب إلى العقل وأنسب للحال من القول بوجود وجود زمن لم يكن فيه أحد يتمم به مقصد الله من خلقه الإنسان. وليس من يعارض هذا فمن الضروري أن يكون قد وجد دائمًا من يدخل في تلك المصالحة التي سبق التنبؤ بها. فنرى من ذلك أن آدم وحواء قد شملهما بدون شك هذا الفداء ولو أن الكتب الإلهية لا تشير إلى ذلك إشارة واضحة.

(م) بيان إنه لا يحتمل التصديق أن الله الذي خلقهما وقصد أن يخلق منهما جميع الناس الذين كان يريد أن يقبلهم في ملكوته السماوي أن يكن قد قضى بحرمانهما من هذه الغاية.

(س) بل بالعكس يجب التصديق بالأولى إنه خلقهما ليكونا من جملة المفتدين الذين قد خلقا من أجلهم.

(م) وأما العذراء التي ولد منها ذلك الإنسان الذي نحن في صده. فهي من عداد الذين كانوا قد تطهروا به من خطاياهم قبل ميلاده. فيكون قد اتخذ الناسوت من عين الطهارة التي هي منه.

(س) يعجبني ما تقول كثيرًا لو لم يظهر إنه حاصل على هذه الطهارة من أمه وليس من نفسه مع إنه يجب أن يكون طاهرًا من الخطية من ذات نفسه.

(م) ليس الأمر كذلك بل إن طهارة أمه التي هو طاهر بها لم تكن إلا من ذاته فلهذا كان طاهرًا بنفسه ومن نفسه ليس ألا.

الفصل السادس عشر

في كيف أنه لم يمت مضطراً حال كونه لم يأت إلا ليموت

(س) كل ما أوردت إلى الآن حسن ولكن يتراءى لي وجود قضية أخرى تستلزم السؤال. قلنا فيما تقدم إنه لا يموت عن اضطرار والآن إن أمه قد تطهرت بموته العتيد وإن لم تكن طاهرة لما أمكن أن يأتي منها قطعاً. فكيف يقال والحالة هذه إنه لم يمت بالضرورة مع إنه لم يأت إلا ليموت. ولو لم يكن مزماً أن يموت لما كانت العذراء التي أخذ منها طاهرة؛ إذ لا حصول على التطهير إلا بالاعتقاد بموت المسيح الحقيقي. وإلا لما أمكنه أن يولد منها. بعلية لو إنه لم يمت بالضرورة بعدما اتخذ من العذراء لأمكن أن لا يتخذ من العذراء بعد اتخاذه منها الأمر الذي هو مستحيل بالطبع.

(م) لو كنت تأملت فيما قيل آنفاً لوجدت هذه المسألة محلولة من نفسها.

(س) لا أرى كيف ذلك.

(م) ألم نبين لدى بحثنا في هل كان بإمكانه أن يكذب وجود مكنين للكذب إحداهما إرادة الكذب والأخرى المقدرة على الكذب وبما إنه لم يكن قادراً من نفسه على إرادة الكذب عندما كان قادراً على قوله وجب لذلك أن يحمد بره الذي حافظ به على الصدق.

(س) الأمر هكذا.

(م) وعلى هذا المنوال يوجد في حفظه للحياة مقدرة على إرادة حفظها

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

ومقدرة على حفظها. والجواب لمن يسأل إن كان ابن الله هذا المتأنس عينه قادراً على حياته من الموت على الدوام هو أنه بلا ريب كان دواً قادراً على حفظها. ولو إنه لم يرغب في أن يبرد حفظها الدائم من الموت. وبما أنه قد كان له ذلك من نفسه -أي عدم المقدرة على الإرادة والإرادة على عدم المقدرة- فلا كون ذلك عن اضطرار بل من قدرته الحرة المستقلة.

(س) إن هاتين المقدرتين غير متشابهتين تمام التشابهة. أعني المقدرة على الكذب والمقدرة على البقاء (حفظ الحياة): لأنه يفهم من الأولى أنه لو أراد لقدر أن يكذب. وأما في الثانية فيظهر أنه لو كان لا يريد أن يموت لما قدر كما أنه لم يكن قادراً أن يكون غير ما كان لأنه لهذا صار إنساناً لكي يموت. وبالإيمان بذلك الموت العتيد قد أمكن أن يتخذ جسم البشرية من العذراء كما قلنا سابقاً.

(م) كما إنك تحسب أنه لم يكن قادراً على ألا يموت أو إنه مات بالاضطرار لأنه لم يكن بوسعها أن يكون غير ما كان كذلك تستطيع أن تقول إنه لم يكن باستطاعته أن يريد أن لا يموت أو إنه أراد أن يموت بالاضطرار. لأنه لم يكن بإمكانه أن يكون إلا ما كان. إذ لم يتأنس ليموت أكثر من إنه تأنس لكي يريد أن يموت. فعليه كما إنه لا يجب القول إنه لم يكن قادراً أن لا يريد الموت أو أراد أن يموت بالاضطرار هكذا لا يجب أن يقال إنه لم يكن قادراً على ألا يموت أو مات بالاضطرار.

(س) إن الموت وإرادة الموت هما خاضعان للبرهان الواحد. فيظهر بأن كليهما كانا له من الأسباب الاضطرارية.

(م) من هو ذاك الذي أراد برضاه أن يصير إنساناً ليموت بمطلق إرادته غير المتغيرة وبالإيمان بهذا اليقين قد تطهرت العذراء التي أخذ منها ذلك الناسوت.

لماذا تجسّد الكلمة؟

(س) هو الله ابن الله.

(م) ألم يظهر سابقًا أن إرادة الله لا تكره بأية ضرورة كانت ولما يقال إنه تعالى أمرًا عن ضرورة فيكون هو نفسه حافظًا لإرادته بثبوتها الذاتي الاختياري.

(س) قد أثبت هذا الحق حق الإثبات ولكن أرى من جهة أخرى أن ما يريده الله غيز متغير فلا يمكن أن لا يكون بل واجب الوجود فإذا أن أراد الله أن يموت ذلك الإنسان فمن المحتّم أن يموت.

(م) إنك تثبت من كون ابن الله اتخذ الطبيعة البشرية لأنه أراد أن يموت أن ذلك الإنسان لا يقدر أن لا يموت.

(س) كذا أفهم.

(م) أما تبين لك ما تقدم أن ابن الله والطبيعة البشرية المأخوذة إنما هما أقنوم واحد فيكون الله والإنسان واحدًا ابن الله وابن العذراء.

(س) هذا هو.

(م) إذًا إن ذلك الإنسان قد مات لكونه لم يكن قادرًا بمجرد إرادته الخاصة أن لا يموت.

(س) لا يمكن إنكار ذلك.

(م) فعليه بما أن إرادة الله لا تفعل أمرًا عن ضرورة بل من سلطته الخاصة وبما أن إرادة ذاك هي إرادة الله فلا يكون موته بحكم الضرورة بل من إرادته الخاصة المطلقة.

(س) لا يسعني الاعتراض على براهينك وإني لعاجزٌ أن أنقض المقدمات

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

التي قدمتها والنتائج التي حصلتها غير أن ما قلت لم يزل يتردد في ذهني وهو إنه لو أراد أن لا يموت لما قدر كما إنه لم يكن قادرًا أن يكون غير ما كان إذ إنه كان مزعمًا حقًا أن يموت ولو لم يكن مزعمًا حقًا أن يموت لما كان الإيمان بموته العتيد صحيحًا. ذلك الموت الذي كانت العذراء المولود منها وآخرون كثيرون قد تطهروا به من الخطية وإن كان هذا غير صحيح ولا بحقيقي لما نفع شيئًا فلذلك لو استطاع الامتناع عن الموت لاستطاع بلا خلاف أن يجعل الصحيح غير صحيح.

(م) لماذا قبل أن يموت كان إزماعه على الموت حقيقيًا.

(س) لأنه كان يريد ذلك عن رضى وإرادته الغير المتغيرة.

(م) فإذا كان غير قادر كما تقول على أن لا يموت لأنه أراد ذلك باختباره وإرادته غير المتغيرة فينتج منه أن عدم قدرته على عدم الموت ما هي إلا لكونه يريد أن يموت بإرادته غير المتغيرة.

(س) فليكن. ولكن مهما كان السبب فمن المحقق إنه لم يكن بإمكانه أن لا يموت بل كان من الضروري أن يموت.

(م) إنك تحاول التشبث كثيرًا بما هو أو هي من خبط العنكبوت.

(س) أنسيت ما دار بيننا في بداية المطارحة وكيف رددت أعذارك بأنك تقوم بما أسألك إياه لا إفادة للعلماء بل لي ولأمثالي من الذين يطلبون البحث عن مثل ذلك فاحتملنا على بطء الفهم واقض مآربنا ولو في مثل هذه المسائل الغير الهامة كما شرعت.

الفصل السابع عشر

في أن ليس عند الله ضرورة ولا استحالة وفي ماهية الضرورة الموجبة والضرورة غير الموجبة

(م) قد قلنا إنه من الخطأ أن يقال إن الله لا يستطيع أن يفعل أمراً أو يفعل أمراً بالضرورة. لأن كل ضرورة واستحالة خاضعة لإرادته فعلاً. أما إرادته فليست بخاضعة البتة لأيّة ضرورة أو استحالة كانت. إذ لا شيء ضروري مستحيل إلا بإرادته. وأما القول إنه يريد أمراً أو ليس يريد له ضرورة أو استحالة فهو بعيد عن الحقيقة. ولا ضرورة ولا استحالة تسبق ما يريد أو عدمه. ولا توجد ضرورة أو استحالة تسبق فعله لشيء ما أو عدم فعله إياه. مع ذلك قد يشاء سبحانه أموراً كثيرة بمشيئته لا تتغير ويفعلها. هذا ومتى فعل الله أمراً لا يمكن بعد فعله أن يكون غير مفعول بل يبقى دائماً مفعولاً. وبالحقيقة لا يصح أن يقال إنه يستحيل على الله أن يجعل الحادث لم يحدث. لأن العامل هنا ليس ضرورة الفعل أو محالته بل مجرد إرادة الله الذي يشاء أن يكون الحق ثابتاً دائماً كما هو تعالى ثابت لأنه هو الحق. وهكذا إذا قصد الله أمراً ولو إنه يحكم قبل فعله إياه أنه لا بد من وقوعه. فمع ذلك ليس هناك وجوب عليه أن يفعل أو استحالة لأن الفاعل الوحيد لذلك إنما هو إرادته. وكل مرة يقال إن الله لا يمكنه هذا الأمر فلا ينفي ذلك عنه القدرة. بل يثبت أن اقتداره وقضائه لا يقهران: إذ لا يفهم منه سوى إنه لا توجد قوة تجبره على فعل ما يظن أنه لا يستطيع فعله. وكثيراً ما يُستعمل مثل هذا الأسلوب في التكلم كما لو يقال عن شيء إنه ممكن حدوثه والمعنى ليس لأن القوة موجودة. والمعنى ليس لأن فيه العجز. بل العجز يوجد في شيء آخر.

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

فقد نقول مثلاً إن فلاناً يمكن أن يُقَهَّر ونعني بذلك إنه يوجد شخص عنده القدرة على قهره. وكذلك نقول إنه لا يمكن أن يقهر ونعني إنه لا يوجد شخص عنده القدرة على قهره لأن إمكانية قهر إنسان لا تدل على القوة بل على عجزها وعدم إمكانية قهر إنسان لا يدل على عجز القوة بل على وجودها. كذلك لا نقول إن الله يفعل هذا الأمر بالضرورة ونقصد أن الضرورة موجودة فيه تعالى. بل موجودة في شيء آخر غير سبحانه. لأن كل نوع الضرورة إما يكون ارغاماً على العمل أو منعاً عن العمل وهذان النوعان متناقضان كلية نظير قولنا ضروري ومستحيل. لأن الواجب أن يكون متنعاً أن لا يكون. والواجب أن لا يكون متنعاً أن يكون بحيث ما هو ضروري. أن يكون محال أن لا يكون وما هو ضروري أن لا يكون. محال أن يكون محال أن لا يكون وما هو ضروري أن لا يكون. محال أن يكون والعكس بالعكس. ولكن عندما نقول إن شيئاً ما ضروري عند الله أو غير ضروري فلا يؤخذ منه إنه توجد ضرورة في كل الأشياء الآخر تمنع عملها أو توجب عدم عملها وعكس ذلك ما يقال بخصوص الله لأن قولنا إنه ضروري أن يصدق الله دائماً هكذا عظيم حتى إنه لا يوجد بالضرورة شيء مطلقاً يحمله على أن لا يقول الصدق أو يقول غير الصدق. ولذا أن قولنا إن ذاك الإنسان الذي بحسب وحدة الأقنوم كما قيل آنفاً هو نفس الله ابن الله لا يمكنه أن لا يموت أو لا يمكنه أن لا يريد أن يموت بعدما وُلِدَ من عذراء لا يدل على عجز فيه عن حفظ حياته الخالدة أو عن إرادة حفظها بل عن ثبوت إرادته التي بها قد صار إنساناً باختياره ليموت قائماً على هذه الإرادة التي لا شيء يستطيع أن يغيرها فيه. على إنه قد كان العجز يسود على القدرة لو أمكن له إرادة الكذب أو الغش أو العدول عن إرادته التي سبق فقضى أن تكون عديمة التغير وكما ذكرنا قبلاً إذا قصد أحد مختاراً أن يصنع معروفاً مع آخر ثم تم ذلك مختاراً أيضاً. فإنه وإن كان من الممكن أن يجبر على الوفاء بوعده إن أبى أن يقوم به لا يقال مع ذلك إنه

نماذا تجدد الكلمة؟

صنع ما صنع عن ضرورة. بل بحرية إرادته التي كان قد عزم أن يعملها بها. وحيث كانت الإرادة هي باعث العمل دون الضرورة أو العجز. فلا يجب هناك القول إن عملاً عُمِلَ أو لم يُعْمَل للضرورة أو للعجز. أقول وإذا كان الأمر كذلك من نحو الإنسان. فيكون بالأولى عدم وجوب ذكر الضرورة أو العجز في جانب الله. الذي لا يفعل إلا ما يشاء. وليس لقوة مطلقاً أن تلزم مشيئته العزيزة أو تمنعها (فمن أجل ذلك كان اختلاف الطبيعتين في المسيح ووحدة الأقدوم نافعين من حيث إن ما كان ينبغي عمله لتجديد الإنسان كانت تقوم به الطبيعة الإلهية عند عجز البشرية عنه. وما كان لا يليق لتلك أن تفعله كانت تأتبه هاته. وكلتا الطبيعتين كانتا كاملتين فيه تمام الكمال يعمل بالبشرية ما يجب عليها ويستطيع أن يعمل بالإلهية ما يوافقها). وأخيراً إن العذراء التي ظهرت بالإيمان حتى أمكنه أن يولد منها لم تؤمن بموته العتيد إلا لأنه كان يريد أن يموت كما تعلمت من النبي القائل: "أنه قطع من أرض الأحياء وأنه سكب للموت نفسه" (إش ٥٢: ٨. ١٢). فعلى ذلك بما أن إيمانها كان صحيحاً كان من الضروري أن يكون حسبما أمنت. وإن كنت جفَل لقولي من الضروري فأذكر أن صحة إيمان العذراء لم تكن العلة لموته الاختياري بل كان إيمانها صحيحاً؛ لأن ذلك كان عتيداً أن يكون. فلذا لو قيل إنه كان ينبغي أن يموت بمجرد إرادته لأن الإيمان والنبوة السابقين صحيحان. يكون هذا كأنك قلت كان ضرورياً أن يكون لأنه عتيد أن يكون كذلك ولكن على هاته الكيفية ليست الضرورة؛ إذ توجد ضرورة لاحقة وهي التي تتوقف على الشيء أي أن الشيء هو الذي يسببها. فقولي مثلاً إن الأرض تدور حول الشمس هي ضرورة سابقة وعلة فعالة لأن دوران الأرض ضروري. وأما قولي إنك تتكلم بالضرورة لكونك تتكلم فهي ضرورة لاحقة حاصلة وليس هي الفاعلة والقصد من قولي هذا أن لا شيء يمنعك من الكلام عند التكلم ولا يجبرك عليه إذ إن قوة نواميس الطبيعة تقضي على الأرض بالدوران.

في إثبات أن الإنسان مخلوق للعادة الدائمة

وأما أنت فما من ضرورة حملك على الكلام إكراهًا. وحيث الضرورة السابقة هناك الضرورة اللاحقة ولكن لا تكون الضرورة اللاحقة دائمًا حيث الضرورة السابقة فإننا نقدر أن نقول إنه ضروري أن الأرض تدور لكونها تدور. إلا إنه لا يصح أن يقال إنك تتكلم لأنه ضروري أن تتكلم وهذه الضرورة اللاحقة تجري على الدوام على هذا النمط.

ما كان وجب أن يكون وما هو كائن وجب أن يكون وما سيكون وجب أن يكون

وهذه الضرورة (التي تكلم عنها أرسطوطاليس في عرض بحثه في القضايا المفردة والمستقبلية) يظهر إنها تلاشي كل شيء أو حدث كل شيء بالضرورة ولما كان الإيمان والنبوة المتعلقان بالمسيح من حيث كونه مزعمًا أن يموت بالاختيار وليس بالاضطرار صحيحين فهذه الضرورة اللاحقة التي لا فاعلية لها اقتضى أن يكون كذلك وبهذه الضرورة صار إنسانًا وبها عمل ما عمل وقاسى وأراد كل ما أراد وبهذه الضرورة عينها قد كان ذلك؛ لأنه كان واجبًا أن يكون. وكان واجبًا أن يكون لأنه قد كان. وقد كان لأنه قد سبق فكان. وإن رمت أن تعرف الضرورة الحقيقية لكل ما عمل واحتمل. فاعلم أن كل شيء كان ضروريًا لأنه كان يريد ولكن ليس بالضرورة السابقة على إرادته. فبنيًا عليه. إذا لم يكن إلا ما يريد فلو لم يرد ذلك لما كان. إذا لم يأخذ أحد منه نفسه إنما هو من ذاته قد وضعها ثم أخذها أيضًا؛ إذ كان له سلطان أن يضعها وأن يأخذها كما قال هو نفسه (يو ١٠: ١٨).

(س) قد أقنعتني أنه من الممتنع إثبات احتماله للموت مضطرًا ولكنني لست بنادم على تثقيبلي عليك مُلِحًا لتأتي ذلك.

(م) قد أقمنا على ما أظن برهانًا قاطعًا على كيفية اتخاذ الله الطبيعة

لماذا تجسّد الكلمة؟

البشرية بدون خطية من الجبلّة الخاطئة وإني أرى إنه لا يمكن إنكار وجود سبب آخر دون ما قدمناه فضلاً عن أن الله جلّت حكمته قادر أن يعمل ما لا يدركه عقل الإنسان على أن في هذا الاستدلال المقدم كفاية وإني لو رمت إطالة النظر والاستقصاء في الموضوع لاقتضى أن أبحث في ماهية الخطية الأصلية وكيف سرّت من أبوين الأولين إلى عموم الجنس البشري ما عدا ذلك الإنسان الذي نحن في صدره. ولزم الولوج أيضاً في بعض مسائل أخرى تستلزم كلّ منها بحثاً على حدة. فلنتبع ما بقي من المشروع الذي شرعنا به راضين بالدليل الذي قدمناه.

(س) كما تشاء. ولكن على شرط أن ترجى إلى وقت آخر إن شاء الله طرق هذا المبحث الذي تأبى الآن النظر فيه.

(م) لا أرفض ما تقترحه عليّ ما دمت عالماً أنني أملك هذه الإرادة. ولكن لما كنت على غير نيرة في المستقبل لا أجسر أن أعدك بل أوكل الأمر إلى قضاء الله^١ فقط قل لي الآن هل يظهر لك شيء بعد يستوجب الشرح في المسألة المعروضة التي تشعبت منها جميع هذه المسائل. كان بالإنسانية غير قادر أن يؤديه ما كان واجباً عليها كان بالإلهية مستطاعاً لديه وقد أثبت إنه من المقتضى أن يتخذ أقنوم ابن الله هذا الناسوت من عذراء كما أظهرت كيف أمكن أخذه بدون خطية من الطينة الخاطئة موضعاً حق التوضيح أن حياة ذلك الإنسان تفوق كل تقدير حتى أن بها الكفاية لإيفاء أكثر جدّاً مما هو مطلوب عن خطايا العالم بأسره فبقي الآن بيان كيف أن تلك الحياة توفى الله عن خطايا البشر.

^١ إن المؤلف بحث في هذه القضية بعد ذلك بنحو عامين في كتاب سماه الجبل البتولي والخطية الأصلية بعث به إلى بوز وأظهر فيه وجوب أن الله يلد بطريقة غير طبيعية نسلًا بارًا محضًا من ذات عذراء خاطئة لأن الخطية لا توجد في الطبيعة الإنسانية خارجًا عن الإرادة.

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

الفصل الثامن عشر

في كيف أن حياة المسيح تكفر عن خطايا البشر
وكيف كان ينبغي أن يتألم وكيف لا ينبغي

(م) إذا كان قد رضي بالموت من أجل العدالة ألا يكون قد وضع حياته
إكرامًا لله؟

(س) ولئن كنت لا أستطيع فهم ما لست أرتاب فيه ولا أرى عقليًا كيف
أمكن فعله وكيف كان قادرًا على أن يحفظ على البر راسخًا وعلى حياته
معًا على الدوام. فأني أقر بأنه قد قدم باختياره تمجيدًا لله شيئًا لا يعادله
شيء ما سوى الله الذي هو كافٍ أن يوفي عن جميع خطايا الجنس البشري
قاطبة.

(م) ألا تعلم أنه باحتماله بالصبر العجيب تلك الآلام والهوان وموت
الصليب بين اللصين ذلك الموت الذي نفذ فيه كما قلنا من أجل البر الذي كان
قائمًا عليه بملء الطاعة. قد قدم للناس نموذجًا للقيام بواجباتهم نحو الله
لكي لا ينحرفوا عن سبيل البر من جراء أية مشقة يقاسونها أو هوان يلحق
بهم ولو إنه باستطاعته عاف الموت الذي يطرأ عليه من أجل البر لما أمكنه
تقديم ذلك المثال.

(س) أرى أنه لم يكن من باعث لتقديمه ذلك المثال إذ كثيرون قبل مجيئه
ويوحنا المعمدان بعد مجيئه وقبل موته قد ماتوا بشجاعة حبًا بالحق وأعطوا
مثالًا كافيًا لتمسكهم بسبيل البر.

(م) أبدًا لم يقدم أحد غيره لله بالموت ما لم يلتزم أن يفقده قسرًا في

لماذا تجسّد الكلمة؟

وقت من الأوقات أو إنه أدى ما لم يكن واجباً عليه. أما هو فباختياره قد قدم لأبيه ما ليس يفقده البتة بالاضطرار وأوفى عن الخطاة ما لم يلزمه إيفاءه عن نفسه. فمن أجل ذلك كان الأخلق بأن يكون هو المثال الفرد للجميع لكي لا يتردد أحد عند الاقتضاء في أن يرد الله ما لا بد أن يفقده في حينه بلا مناص. ولما كان محرراً من أن يوفي عن نفسه وليس بملزماً أن يوفي عن الآخرين الذين لا يلزمه إلا عقابهم فأعطى حياته الثمينة حتى نفسه أي ذلك الأقنوم الكريم بمطلق إرادته الكاملة.

(س) إنك تكاد تصيب المرمى فاحتملني قليلاً لأسألك أمراً آخر أراه مهماً وإن يكن عندك لا يستحق الذكر. لأنني لا أعرف كيف أرد عنه إذا سُئِلت. قلت إنه أعطى بموته ما ليس مدينًا به. وما من أحد ينكر إنه بإعطائه هكذا ذلك المثال قد أَرْضَى الله أكثر من عدم إعطائه لأن فعل هذا أفضل من تركه ولا أحد يقول مع هذه الحال إنه لم يكن من الواجب عليه أن يعمل ما يعلم إنه أفضل ومرضي أكثر عند الله. فكيف إذاً يصح القول إنه لم يكن مدينًا لله بما عمله يعني بما يعلم أفضليته وكونه الأقرب إلى مرضاة الله ولا سيما إذا كانت الخليقة مدينة لله بكليتها وما تعلمه وما تقوى عليه.

(م) إن الخليقة وإن يكن ليس لها شيء من ذاتها. فمتى أجاز الله لها شرعاً أن تفعل أمراً وأن لا تفعله أي خَوَّلَهَا التمييز في أمر بين الفعل والترك. بحيث لا تطالب بالواحد ولا بالآخر فرضاً. وكان مع ذلك أحد الأمرين أفضل من الآخر فسواء اختارت الأول أو الثاني لا يقال عنها إلا إنها أنت ما يجب عليها إتيانه. لأنه وإن يكن مثلاً التبتل أفضل من الزواج (أو على رأى الغير الزواج أفضل من التبتل) فكلاهما لا يلزمان الإنسان وجوباً ولا يطلبان منه فرضاً. بل إذا تزوج أو تبتل يقال عنه إنه قام بما وجب عليه: إذ ما من أحد يقول بعدم وجوب الاختيار بين الأمرين وإنما نقول إن الذي يعزم عليه بعدما

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

يرى له الأفضلية ذلك ما يجب عليه فعله. وعندما تقول إن الخليقة مدينة لله بكل شيء تعلم أفضليته وتستطيعه وتحكم أن ذلك محتّم عليها فلا يصح حكمك إلا إذا كان الله أمّره بدلالة. هذا وقد يحدث مرارًا عند التكلم عن القدرة أو العجز أو الوجوب أن هذه لا تكون في نفس الأمور التي نتكلم عنها بل في أمور آخر. فقولنا مثلاً إن الفقراء يجب عليهم قبول الصدقات من الأغنياء يفيد أن الأغنياء هم الذين يجب عليهم إعطاء الصدقات لأن هذا الفرض ليس بمطلوب من الفقير. بل من الغني وكذلك القول إن الله يجب أن يسود على جميع الخلائق كافة. ليس لكونه ملزماً بذلك بأي وجه من الوجوه. بل لكون جميع الخلائق يجب أن تكون خاضعة له وتفعل ما يريد: لأن ما يريد يجب أن يكون وهكذا متى أرادت الخليقة أن تفعل ما لها حق فعله أو تركه. فيقال يجب أن تفعل هذا أو ذاك: لأن ما تريد يجب أن يكون. ومثله الرب يسوع حينما أراد احتمال الموت كما تقدم وكان له أن يتألم أو لا يتألم وجب أن يعمل ما عمل لأن ما أراده وجب عمله أما هو فلم يجب عليه عمله لأن ذلك لم يكن عليه أيضاً على إنه لما كان هو إلهاً وإنساناً معاً قد أخذ من الطبيعة الإلهية اقتداراً يكون له به وهو في الجسد كل ما كان له بحيث لم يكن من المقتضى عليه أن يعطي سوى ما أراد إذ باعتبار أقنومه كان له من ذاته ما كان له كافياً وافياً حتى لم يكن عليه شيء يرده لغيره وليس في حاجة إلى أن يعطي بغية أن يرد له.

(س) لقد اتضح لي الآن اتضاح النهار إنه قدم نفسه للموت إكراماً لله لا عن اضطرار البتة كما توهمت قبلاً وإنه كان من الواجب أن يعمل ما عمل.

(م) وهذا الإكرام على كل حال إكرام الثالوث بجملته لأنه هو نفسه الله ابن الله قد قدم نفسه لنفسه لتمجيده الخاص كما للآب وللروح القدس يعني ناسوته للاهوته الذي هو أحد الأقانيم الثلاثة فنحن نقول عادة أيضاً

لماذا تجسّد الكلمة؟

للعبرة مع بقائنا في دائرة الحقيقة أن الابن قدم نفسه مختاراً للآب لأن هذا أسهل للفهم وأقرب وحينما يقال إن ذاك الابن قد شفع فينا لدى أبيه على هذا الوجه يأخذ قلوب السامعين الشعور بالورع والاحترام.

(س) إنني أقر على ذلك بشهادة الوجدان.

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

الفصل التاسع عشر

في كيف أن خلاص البشر قد حصل بموته

(م) فلنلاحظ الآن قدر الإمكان كيف يستدل على أن خلاص البشر قد حصل من ذلك.

(س) إلى ذلك يتوق قلبي فأني وأن كنت قد أدركت ذلك على ما يخيل إلى أحب كثيرًا سماع برهانه منك.

(م) ولكن لا حاجة بنا إلى بيان عظم ما بذله الابن طوعًا.

(س) حسبما ما نعرف من ذلك.

(م) أفتحسب أن المعطي لله طوعًا عطية جليلة كهذه لا يجب أن يكافأ عليها.

(س) كلا بل بالعكس أرى من أوجب الواجب أن الآب يكافئ الابن وإلا يعد ظالم أن لم يشأ أو عاجزًا أن لم يستطع وكلا الفرضين ممنوع في حق الله تعالت صفاته.

(م) ولكن المكافأة تقوم إما بإعطاء المكافئ ما ليس يملكه أو بالتنازل له عما يحق أن يطالب به غير أن الابن قبل أن يأتي ذلك العمل العظيم كان له كل ما للآب ولم يكن قط مدينًا بما أمكن أن يسامح به. فماذا يكافأ ذاك الذي ليس يعوزه شيء ولا يتيسر له شيء ولا يمكن أن يسامح بشيء.

(س) من جهة أرى لزومية المكافأة ومن جهة أخرى محاليتها فمن اللزوم أن يؤدي لله ما عليه ولكن لا يوجد من يلزم الأداء له.

لماذا تجسّد الكلمة؟

(م) فإذا كانت هذه المكافأة الجزيلة القدر الواجبة عدلاً ليست تؤدي لمستحقها ولا لسواه فيكون الابن كما يظهر قد صنع هذا العمل العظيم عبثاً.

(س) لا يجوز الافتكار بهذا قطعاً.

(م) فإذا ينبغي أن يؤدي إلى غيره ما يتعذر أن يؤدي إليه.

(س) هذه نتيجة لازمة.

(م) فإذا شاء الابن أن يعطي لأحد ما هو من حق ملكه أترى من العدالة أن يكفه الآب عنه أو أن يمنع ذلك عمن يشاء الابن أن يعطيه.

(س) كلا بل لا أرى من العدل والواجب إلا أن يحسن الآب إلى من يريد الابن أن يحسن إليه لأنه أن حق للابن أن يوجد بماله لا يسع الآب إلا أن يؤدي للغير ما عليه.

(م) ومن هم أحق بجني ثمرة موته وأخلق بنوال مكافأته من الذين تأنس لأجل خلاصهم أي المؤمنين به الذين قدم نفسه قدوة لهم لكي يستميتوا في سبيل البر ولا يحيدوا عنه فإن لم يصيروا شركاء استحقاقه فيكون اقتداؤهم به عبثاً. أو من هم أولى بأن يقيمهم ورثة له من الدين المستحق الذي ليس هو بمفتقر إليه ورثة فيض ملئه من ذوي قرياه وأخوته الذين يراهم مثقلين بالديون الفادحة الوافرة بهلكون فقراً في أسحق مهاوي التعاسة فيترك لهم ما عليهم من الخطايا ويعطون ما يعوزهم من جرائها.

(س) لا يسمع العالم أصوب من هذا ولا واطرب أما أنا قد عظمت ثقتي جداً حتى أنني لا أستطيع التعبير عما يخامر قلبي من وفور الابتهاج إذ يبان لي أن الله لا يخيب أحداً يتقرب إليه بذلك الاسم.

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

(م) ذلك حق إذ تقرب كما يقتضي فالكتاب المقدس المبني على حقيقة مؤيدة كما على أس وطيد يرشدنا في كل موضع منه إلى الوصول إلى هذه النعم الكريمة الفائقة وكيف يجب أن يتمتع بها ويحيا فيها.

(س) حقًا أن كل ما هو مبني على هذا الأساس مبني على صخرة ثابتة.

(م) أظن أنني أجبت حتى الآن على نوع ما على ما سألتني ويتسنى لمن هو أقوى مني أن يشبع الموضوع أكثر ويوفيه حقه على أن علل هذا السر وتعليقاته أغمض وأدق وأسمى من أن يكشفها إدراكي أو أي إدراك بشري. ثم إنه واضح أن الباربي تبارك وتقدس لم يكن في حاجة إلى أن يعمل ما مر قوله بل هي الحقيقة غير المتغيرة التي اقتضت أن يكون كذلك. ويسوغ القول إن ما عمله ذلك الإنسان عمله الله باعتبار وحدة الأفنوم وأن الله لم يكن مضطرًا إلى النزول من السماء ليغلب إبليس ولا أن يعامله كقاض عدل ليطلق سبيل الإنسان بل كان له تعالى أن يطالب الإنسان بقهر إبليس إيفاء عادلاً عما أساء به إلى الله باقترافه الخطية. ولكن الله أوجب على الإنسان أن يظفر بإبليس كما غلبه هذا على أن ما كان مطالبًا به كان لله وليس لإبليس.

الفصل العشرون

في عظمة رحمة الله وعدالته

(م) إن رحمة الله التي كانت تتراءى لك معدومة عند نظرنا في عدالة الله وخطية الإنسان نجدها الآن عظيمة مطابقة للعدالة كل المطابقة حتى إنه يستحيل على الذهن تصور أجل وأعدل منها وأي رحمة يتيسر إدراكها أعظم من أن يقول الله الأب للخاطي المحكوم عليه بالعذابات الأبدية وليس له ما يفتدي به "هاك وحيدي أقدمه عنك" والابن نفسه يقول "خذني فدية عنك". فهما يقولان لنا مثل ذلك بدعوتهما لنا واجتذابهما إيانا للإيمان المسيحي وأي شيء أعدل من إعطاء الدائن بدلاً يفوق قيمة مطلوبة يبرئ المدينون من كل الدين المستحق عليه.

في إثبات أن الإنسان مخلوق للسعادة الدائمة

الفصل الحادي والعشرون

في أن خلاص إبليس من المحال

(م) أما خلاص إبليس الذي سألتني عنه فإذا أمعنت النظر في خلاص البشرية تبدو لك محاليتها لأنه إن كان الإنسان لا يقدر أن يخلص إلا بإله يصير إنساناً قابل الموت وببره يرد لله ما فقدته بسبب خطية الإنسان فلا يتيسر للملائكة المحكوم عليهم أن يخلصوا إلا بإله يصير ملاكاً يحتمل الموت وببره يرد لله ما سلبته خطايا الآخرين وإذا كان غير مسوغ أن يفدي إنساناً آخر من غير جنسه ولو كان من ذات طبيعته فلا يتيسر للملاك أيضاً أن يخلص بملاك آخر ولو كانا كلاهما من طبيعة واحدة إذ هما ليسا من أصل واحد كالبشر لأن الملائكة ليسوا جميعاً من ملاك واحد كشأن الناس من إنسان واحد. ومن الأسباب الحائلة دون تجديدهم أيضاً إنه يلزم كما سقطوا دون أن يعمل أحد على إسقاطهم أن ينهضوا بلا معونة آخر البتة الأمر المستحيل عليهم وبخلاف ذلك لا يعادون إلى المقام الذي كانوا فيه لأنهم لو لم يخطئوا لبقوا ثابتين في الحق بدون سند خارجي بل بقدرتهم الذاتية التي أخذوها وعليه أن كان أحد يرى أن فداء مخلصنا يجب أن يشملهم أيضاً في زمن ما فهو مقتنع منطقياً كما إنه مخطئ منطقياً أيضاً. لا أقول ذلك كأن قيمة موته ليست بكافية للتكفير عن خطايا البشر والملائكة طراً بل لأن استدلال الوحي الثابت يضاد نهوض الملائكة الساقطين.

لماذا تجدد الكلمة؟

الفصل الثاني والعشرون

في أن ما مربنا من القول يثبت صحة العهدين القديم
والجديد

(س) يظهر لي أن كل ما أتيت على بسطه صحيح مسلم به لا يقبل الاعتراض وأناى أرى بحل المسألة الأولية المقصود حلها يتعزز كل ما يتضمن العهدان القديم والجديد وبأثباتك وجوب صيرورة ابن الله إنساناً مع صرف النظر عما استشهدت به من الكتب المقدسة تقنع عقلياً حتى الوثنيين والمجاهدين أيضاً. وهكذا الكلمة المتأنسة هي المعطية العهد الجديد والمؤيدة للعهد القديم فإن وجب علينا الإقرار بأن ابن الله هو الحقيقة عينها وجب بلا مرأ أن لا ينكر شيء مطلقاً مما احتوت تلك الكتب ولا يرتاب في صحتها.

(م) إن وجد شيء مما قيل يستدعي التصحيح فا أكره تصحيحه أن كان صواباً ولكن إذا كان مؤيداً بشهادة الحقيقة فلا يسوغ أن نعزو اكتشافه إلى ذواتنا بل إلى الله المبارك إلى الأبد أمين.

واحدة من أهم العقائد التي يسأل عنها الجميع، هي لماذا تجسد الله؟ فللوهلة الأولى نرى الأمر غير منطقي؛ الله العلي المرتفع، كلي العلم والقدرة، الذي ليس مثله شيء، يتخذ صورة إنسان. والحقيقة أن هذا الاعتراض منطقي، والسؤال حق مشروع ومكفول للجميع.

المنطقي والعقل يرفضان هذه الفكرة، كيف يصير الله إنساناً؟ ولماذا؟ أليس هناك طريقة أخرى للخلاص أسهل من هذه؟ ... وغيرها الكثير من الأسئلة الهامة والتي دائماً ما تأتي في عقل أي شخص حينما تطرح عقيد التجسد للنقاش.

يجيب القديس أنسيموس اللاهوتي، وهو من أهم اللاهوتيين في تاريخ الكنيسة، على الكثير من الأسئلة الشائكة، التي لا زالت أسئلة الساعة رغم مرور أكثر من ألف عام على كتابة الكتاب.



دار الثقافة

١٠١١٣٧٣٠